المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بدمياط الجديدة



التأثيرات الفلسفية للبراجماتية الكلاسيكية على تطور الفكر البراجماتي الحديث

الدكتور

محمد مدحت محمد الشربيني

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الاسلامية والعربية

بدمياط الجديدة

العدد السابع عشر (مارس ٢٠٢٥م)

الترقيم الدولي/ (٦٣٥٣- ٢٣٥٦) ISSN

الترقيم الدولي الإلكتروني/ (٢٧١٦- ٢٦٣٦)

رقم الإيداع بدار الكتب / (١٨٧٦٦/ ٢٠١٣)

التأثيرات الفلسفية للبراجماتية الكلاسيكية على تطور الفكر البراجماتي الحديث

ملخص البحث:

تُعدّ الفلسفة البراجماتية من أبرز الاتجاهات الفكرية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ركّزت على أهمية العمل والفائدة كمعيار لتحديد الحقيقة. وقد ساهم مفكرون بارزون مثل ويليم جيمس، وتشارلز ساندرز بيرس، وجون ديوي في وضع أسسها النظرية وتطوير مفاهيمها.

يسعى هذا البحث إلى استكشاف مدى تأثير الأفكار الفلسفية التي طرحتها البراجماتية الكلاسيكية على تشكيل وتطور الفكر البراجماتي في سياقه الحديث، مما يتيح فهمًا أعمق للتأثيرات المتبادلة بين الماضي والحاضر في هذا الإطار الفكري.

وقد تطلبت طبيعة هذه الدراسة إجراء تحليل معمق للنصوص الفلسفية المتعلقة بالبراجماتية الكلاسيكية، بالإضافة إلى إجراء مقارنة بين البراجماتية الكلاسيكية ونظيرتها الحديثة، مع التركيز على تحليل مدى تأثير البراجماتية الكلاسيكية في تطور الفكر البراجماتي الحديث.

الكلمات المفتاحية: البراجماتية، البراجماتية التقليدية، البراجماتية الحديثة.

Altaathirat Alfalsafiat Lilbarajmatiat Alkilasikiat Ealaa Easr Alfikr Albarajmatii Alhadith

Summary:

The pragmatic philosophy is one of the most prominent intellectual trends that appeared in the late nineteenth century and the beginning of the twentieth century, as it focused on the importance of work and interest as a standard to determine the truth. Permanent thinkers such as William James, Charles Sanders Peres and John Dewey have contributed to their theoretical foundations and the development of its concepts.

This research seeks to explore the influence of philosophical ideas presented by classical pragmatism on the formation and development of pragmatic thought in its modern context, which provides a deeper understanding of the mutual influences between the past and the present in this intellectual framework .

The nature of this study required an in -depth analysis of philosophical texts related to classical pragmatism, as well as a comparison between classic pragmatic and its modern counterpart, with a focus on analyzing the extent of classical pragmatic impact on the development of modern pragmatic thought .

Key words: pragmatism, traditional pragmatism, modern pragmatism.

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، نحمده ونشكره على جزيل نعمه التي لا تُحصى، ونثني عليه بما هو أهل له، فهو المستحق للحمد والثناء في كل وقت وحين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، النبي المصطفى، وخير البرية، الذي أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، رحمة للعالمين.

أما بعد

تعتبر الفلسفة البرجماتية من أبرز الفلسفات في العصر الحاضر التي تُركّز بشكل كبير على الواقع العملي والتجريبي في الحياة، حيث تهدف إلى تحقيق المنفعة العملية كمعيار أساسي للحقيقة والقيمة.

تعتبر البراجماتية الحياة الإنسانية من منظور وظيفي، متخطية النظريات غير المجدية التي لا تسفر عن نتائج عملية. تعتمد هذه الفلسفة على استخدام الطرق العلمية والتجارب النافعة لحل المشكلات، مما يجعلها جزءًا من التيارات المادية بمعناها الشامل.

وتتميز هذه الفلسفة بأسلوبها الفريد في التطبيق، حيث يعالج العقل المشكلات باستخدام الأساليب العلمية السليمة والتجارب المفيدة. تُعد هذه الفلسفة جزءًا من التيار المادي بمعناه الواسع، حيث تركز على الجوانب المادية والواقعية في تحليل الأمور وتفسيرها. يعكس استخدام العقل كأداة رئيسية لحل المشكلات مدى التزام هذه الفلسفة بالمنهج العلمي والتجريبي للوصول إلى حلول عملية وفعالة.

ترتبط البراجماتية بشكل وثيق بالفلسفة النفعية، حيث تعتبر النتائج العملية لأي فكرة أو قضية هي المعيار الأساسي لصدقها ومعناها. ومن هذا المنطلق، تقدم البراجماتية رؤية واقعية للحقيقة، دون الالتزام بأي قواعد أو افتراضات مسبقة، بل تعتمد على المنفعة العملية كأساس لكل الحقائق.



فالبراجماتية تقدم نظرة واقعية للحياة، حيث لا تلتزم بأي قواعد أو افتراضات مسبقة، بل تعتبر الحقيقة العملية الأساس العلمي لكل الحقائق. هذا النهج يجعلها فلسفة قابلة للتطبيق في مختلف جوانب الحياة، حيث تُقيم الأفكار والقضايا بناءً على الفوائد والحقائق العملية الملموسة التي يمكن أن تقدمها.

لاحقًا، تطورت البراجماتية بشكل ملحوظ مع بروز نسختها الحديثة، التي تأقلمت مع التحولات الاجتماعية والثقافية الراهنة. وتهدف البراجماتية الحديثة إلى التعامل مع التحديات المعاصرة، مثل التطور التكنولوجي والعولمة، مع الحفاظ على جوهرها الذي يقوم على إعطاء الأولوية للنتائج العملية والقيم النفعية كأساس للتفكير واتخاذ القرار.

تتجلى أهمية البحث وأهدافه في النقاط التالية:

- تحديد تأثيرات البراجماتية الكلاسيكية على الفكر البراجماتي الحديث .
- تحليل العلاقة بين البراجماتية الكلاسيكية والبراجماتية الحديثة.
- استكشاف التأثيرات الفلسفية للبراجماتية الكلاسيكية على تطور الفكر البراجماتي الحديث.

وتتجلى مشكلة البحث من خلال التطرق إلى الإجابة عن النقاط التالية:

ما هي تأثيرات البراجماتية الكلاسيكية على الفكر البراجماتي الحديث؟

كيف تؤثر البراجماتية الكلاسيكية على العلاقة بين اللغة والواقع؟

ما هي التأثيرات الفلسفية للبراجماتية الكلاسيكية على تطور الفكر البراجماتي الحديث؟



منهج البحث:

دراسة تحليلية للنصوص الفلسفية للبراجماتية الكلاسيكية.

دراسة مقارنة بين البراجماتية الكلاسيكية والبراجماتية الحديثة.

تحليل تأثيرات البراجماتية الكلاسيكية على الفكر البراجماتي الحديث.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في دراسة تأثيرات البراجماتية الكلاسيكية على الفكر البراجماتي الحديث، حيث تسعى هذه الدراسة إلى فهم العلاقة الفلسفية بين التيارين، وتحليل مدى استمرار وتأثير المفاهيم الكلاسيكية في تطور الفكر البراجماتي المعاصر. كما يتناول البحث كيفية تأثير البراجماتية الكلاسيكية على العلاقة بين اللغة والواقع، ودورها في تشكيل الأسس الفلسفية للنظريات الحديثة.

أسباب اختيار الموضوع:

١ أهمية الموضوع في الفلسفة المعاصرة: تعد البراجماتية من أبرز الاتجاهات الفلسفية التي أثرت في مجالات متعددة، مثل الفلسفة، واللغة، وعلم المعرفة، مما يجعل دراسة تطورها أمرًا ضروريًا لفهم أبعادها الحديثة.

٢ الحاجة إلى فهم الامتداد الفكري للبراجماتية الكلاسيكية: لا تزال أفكار فلاسفة البراجماتية الكلاسيكية مثل ويليم جيمس، وتشارلز بيرس، وجون ديوي مؤثرة في التيارات الفلسفية المعاصرة، مما يفرض ضرورة البحث في مدى تأثيرها.

٣ تحليل العلاقة بين الماضي والحاضر في الفكر الفلسفي: يساعد البحث في الكشف عن الروابط بين البراجماتية الكلاسيكية والحديثة، مما يساهم في تقديم فهم أعمق لتطور الفكر البراجماتي.



٤ سد الفجوة البحثية: على الرغم من وجود دراسات حول البراجماتية، فإن البحث في التأثيرات الفلسفية المباشرة بين الاتجاهين لا يزال بحاجة إلى المزيد من التحليل، مما يجعل هذا الموضوع جديرًا بالدراسة.

٥ انعكاسات الموضوع على مجالات متعددة: نظرًا لأن البراجماتية تؤثر في مجالات الفلسفة، واللغويات، والعلوم الاجتماعية، فإن دراسة تطورها يمكن أن تقدم إسهامات علمية في أكثر من حقل معرفي.

الدراسات السابقة

شهدت الفلسفة البراجماتية العديد من الدراسات التي تناولتها من زوايا متعددة، ومن أبرز هذه الدراسات:

١ دراسة بعنوان "تاريخ البراجماتية" – جون ديوي (١٩٢٥م)

تناولت هذه الدراسة تطور الفلسفة البراجماتية منذ نشأتها وحتى عشرينيات القرن العشرين.

الاختلاف عن الدراسة الحالية: يركز هذا العمل على السياق التاريخي العام للبراغماتية، دون الخوض في تفاصيل تأثيرها على البراجماتية الحديثة أو تحليل دور ريتشارد رورتي في تطورها.

٢ دراسة بعنوان "تأثير البراجماتية الكلاسيكية على الفلسفة الحديثة" – مارتن كونج (١٩٩٣م)

تبحث هذه الدراسة في تأثير البراجماتية الكلاسيكية على الفلسفة الحديثة، مع تركيز خاص على الفلسفة التحليلية.

الاختلاف عن الدراسة الحالية: لا تهتم هذه الدراسة بتطور البراجماتية الحديثة كاتجاه فلسفي مستقل، بل تركز على علاقتها بالفلسفة التحليلية.

٣ دراسة بعنوان "البراجماتية الكلاسيكية والفلسفة الحديثة"– جيمس كامبل (٢٠٠٦م)

تناقش هذه الدراسة تأثير البراجماتية الكلاسيكية على الفلسفتين التحليلية والقارية.
الاختلاف عن الدراسة الحالية: تتناول الدراسة تأثير البراجماتية على مدارس فلسفية متعددة، بينما تركز الدراسة الحالية على تطور البراجماتية الحديثة تحديدًا وعلاقتها بالبراجماتية الكلاسيكية.

٤ دراسة بعنوان "البراجماتية الكلاسيكية وأثرها على الفلسفة الحديثة" – جون ر. شيلدز (٢٠١٣م).

تبحث هذه الدراسة في تأثير البراجماتية الكلاسيكية على الفلسفتين التحليلية والقارية.
الاختلاف عن الدراسة الحالية: تركز هذه الدراسة على الفلسفة الحديثة بشكل عام، بينما يركز البحث الحالي على البراجماتية الحديثة كامتداد مباشر للبراغماتية الكلاسيكية، مع تحليل دور ريتشارد رورتي بشكل خاص.

الفرق بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة:

على الرغم من وجود العديد من الدراسات التي تناولت البراجماتية من زوايا مختلفة، إلا أن الدراسة الحالية تتميز بعدة جوانب تجعلها متميزة عن الدراسات السابقة:

١ التركيز على تطور البراجماتية الحديثة كامتداد مباشر للبراغماتية الكلاسيكية .
بينما تناولت الدراسات السابقة البراجماتية الكلاسيكية وتأثيرها العام على الفلسفة الحديثة، فإن الدراسة الحالية تسلط الضوء بشكل خاص على كيفية تشكل البراجماتية الحديثة كنتيجة مباشرة لأفكار البراغماتيين الأوائل مثل بيرس، جيمس، وديوي.

٢ تحليل دور ريتشارد رورتي في تطور البراجماتية الحديثة .



لم تركز الدراسات السابقة على رورتي تحديدًا، بل تناولت البراجماتية من منظور أوسع. أما الدراسة الحالية، فهي تدرس أفكاره بالتفصيل، موضحة كيف ساهم في إعادة تشكيل البراجماتية الحديثة وربطها بالفلسفات المعاصرة.

٣ الربط بين البراجماتية الكلاسيكية والحديثة بمنهجية تحليلية معمقة .

بعض الدراسات مثل دراسة مارتن كونج (١٩٩٣) وجون ر. شيلدز (٢٠١٣) تناولت تأثير البراجماتية الكلاسيكية على الفلسفة التحليلية والقارية، لكن دون التركيز على البراجماتية الحديثة كاتجاه مستقل. أما الدراسة الحالية، فإنها تعتمد على تحليل شامل للعلاقة بين البراجماتية الكلاسيكية والحديثة من خلال دراسة تفصيلية لمفاهيمها وأفكارها الأساسية.

٤ نطاق البحث ومحدداته .

توسعت بعض الدراسات، مثل دراسة جيمس كامبل (٢٠٠٦)، في استكشاف تأثير البراجماتية على مدارس فلسفية متعددة، في حين أن الدراسة الحالية أكثر تحديدًا، حيث تركز على البراجماتية الحديثة كحركة فلسفية قائمة بذاتها.

٥ تقديم منظور جديد حول العلاقة بين البراجماتية الكلاسيكية والمعاصرة .

بخلاف الدراسات التي تناولت البراجماتية من منظور تاريخي أو تحليلي عام، فإن الدراسة الحالية تقدم رؤية جديدة لكيفية استمرار تأثير البراجماتية الكلاسيكية في تشكيل الاتجاهات الفكرية الحديثة، مع التركيز على نقاط التحول الرئيسية التي أدت إلى ظهور البراجماتية الحديثة.

وبناء عليه تتجاوز الدراسة الحالية ما قدمته الدراسات السابقة من خلال تقديم تحليل أكثر دقة للعلاقة بين البراجماتية الكلاسيكية والحديثة، مع التركيز على ريتشارد رورتي كمفكر رئيسي في هذا التطور. كما تتميز بمنهجية تربط بين الجذور الفلسفية الأولى

والتطورات الحديثة للبراغماتية، مما يضيف بعدًا جديدًا إلى الدراسات الفلسفية حول هذا الموضوع.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة .

❖ **أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية البحث ومنهج البحث فيه**

❖ **أما المبحث الأول: فهو الأصول التاريخية لمفهوم البراجماتية.**

➢ أولًا: معنى وأصل مصطلح البراجماتية .

➢ ثانيًا: الأسس الفلسفية والمعرفية للبراجماتية في مراحلها الأولى.

❖ **أما المبحث الثاني: فهو الأسس الفلسفية والمعرفية للبراجماتية التقليدية الكلاسيكية.**

➢ أولًا: تشارلز ساندر بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤م).

➢ ثانيًا: وليم جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠م).

➢ ثالثًا: جون ديوي (١٨٥٩ — ١٩٥٢م).

❖ **أما المبحث الثالث: فهو تأثير الفلسفة البراجماتية التقليدية على تطور البراجماتية الحديثة.**

➢ أولًا: ريتشارد رورتي.

➢ ثانيًا: تأثير الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية على أفكار ريتشارد رورتي.

❖ **أما الخاتمة فقد اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها.**

المبحث الأول

الأصول التاريخية لمفهوم البراجماتية

أولًا: معنى وأصل مصطلح البراجماتية:

تُستخدم كلمة "البراجماتية" "Pragmatism" بمعانٍ مختلفة بناءً على سياق الترجمة أو الفهم. قد تُترجم إلى "براجماطية" أو "براجماتية"، وأحيانًا تُفهم على أنها "العاقبية" أو "التجريبية"، بينما يراها البعض الآخر بمعنى "العملية" أو "الذرائعية".

فأصل كلمة «براجماتزم» مشتقة من اللفظ اليوناني برجما (Pragma) الذي يدل على الفعل والعمل، فانتهى «بيرس[١]» إلى أن «الفكرة هي ما تعمله»، أي أن معناها يرتبط بنتائجها وآثارها العملية المترتبة عليها[٢].

والبراجماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني براجما (Pragma)، أي الفكرة التي تحققها، ومعناه العمل. وهي مذهب فلسفي يقرر أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح. فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة[٣].

---

(١) ولد تشارلز ساندرز بيرس في مدينة كامبريدج بولاية ماساتشوستس، وهو ابن بنجامين بيرس الذي كان في ذلك الوقت رائد أمريكا في العلوم الرياضية. والكثير من نشأة تشارلز الأولى كان علمياً؛ فقد حصل على الماجستير في الرياضيات، وكان أول من نال درجة بكالوريوس العلوم في الكيمياء من جامعة هارفارد عام ١٨٦١م. اتجه بيرس بعد ذلك إلى الفلسفة، حيث تأثر في البداية بالفيلسوف الأمريكي شيلر، ثم أصبح كانط هو المسيطر على تفكيره الفلسفي لاحقًا. انظر: جوناثان ري، و ج. أو . أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد الصادق محمودي، مراجعة واشراف: زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، صـ ١٠٢.

(٢) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، صـ ٩٧.

(٣) الدكتور جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت – لبنان ١٩٨٢م، جـ ١، صـ ٢٠٣.



والبراجماتي (Pragmatique) هو المنسوب إلى البراجماتية، ومعناه العملي أو النفعي[١].

ويرى بعض مؤرخي الفلسفة أن مصطلح البراجماتية مشتق من دمج اللفظين اليونانيين "براجما"، الذي يعني الأشياء المصنوعة، و"براجما"، الذي يدل على الفعل[٢].

ومعنى هذا كله أنه لا يوجد في العقل معرفة أولية تُستنبط منها نتائج صحيحة بصرف النظر عن جانبها التطبيقي، بل الأمر كله رهن بنتائج التجربة العملية التي تقطع مظانّ الاشتباه[٣].

الأمر الذي يترتب عليه أن صدق القضايا يتغير بتغير العلم، وأن الأمور بنتائجها، وأن الحق نسبي، أي منسوب إلى زمان معين، ومكان معين، ومرحلة معينة من مراحل العلم[٤].

فصدق القضايا يتغير بتغير العلم، ويشير إلى أن الحقائق ليست ثابتة، بل تتأثر بالتطور العلمي. وهذا يعني أن ما نعتبره صحيحًا اليوم قد يتغير بناءً على اكتشافات جديدة. كذلك، فكرة أن الحقائق بنتائجها تؤكد أهمية الحكم على الأمور بناءً على نتائجها النهائية[٥] .

ولفظ براجماتي لا يعني إلا قاعدة إرجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية إلى نتائجها، أو كما قيل عنها في موضع آخر: "البراجماتية كاتجاه يمثل ما وفق بيرس في تسميته

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١، صـ ٢٠٤.

(٢) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزي، صـ ١٦.

(٣) الدكتور جميل صليبا: المعجم الفلسفي ، جـ ١، صـ ٢٠٤.

(٤) المصدر نفسه، جـ ١، صـ ٢٠٤.

(٥) المصدر نفسه، جـ ١، صـ ٢٠٤.



العادة المخبرية للذهن "Laboratory Habit of mind"، وقد امتدت لتشمل كل ميدان يمكن للبحث أن يثمر فيه ويعطي نتائج[١].

والبراجماتي (Pragmatiste) أيضًا هو الفيلسوف الذي يتعاطى البراجماتية علمًا أو تعليمًا[٢] .

وكلمة براجماتية كلمة قديمة ومستعملة بمعانٍ مختلفة، إلا أن المعروف عنها الآن وارد في مقال للفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس بعنوان "كيف نوضح أفكارنا" (١٨٧٨م)، حيث يذكر القاعدة الآتية للتحقق من دلالة المعاني التي نستخدمها فيقول: إن تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر[٣].

وهذا يعني أن علامة الحقيقة أو معيارها العمل المنتج لا الحكم العقلي[٤].

وقيل إن الكلمة قديمة وقد استخدمها تشارلز ساندرز بيرس (Charles S. Peirce) في أواخر القرن التاسع عشر، وكان يقصد بها أن معيار الحقيقة هو العمل المنتج وليس مجرد التأمل النظري[٥].

والبرجماتي: بوجه عام، وصف لكل ما يهدف إلى النجاح أو إلى منفعة خاصة. فهو شخص يركز على الجانب العملي والأفعال التي تؤدي إلى نتائج ملموسة، سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي. فهو يقيم الأفكار والمعتقدات بناءً على فائدتها وفعاليتها في

---

(١) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صــ ١٨.

(٢) الدكتور جميل صليبا: المعجم الفلسفي ، جــ ١، صــ ٢٠٤..

(٣) مراد وهبه: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٧م، صــ ١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، صــ ١٣٨.

(٥) ابراهيم مدكور: المعجم الفلسفي الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٩١ - ١٩٧٩م)، صــ ٣٢.

حل المشكلات وتحقيق الأهداف[١].

وهو مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما يكمن في قيمة عواقبها عمليًا، وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما يكمن في كونها مفيدة[٢].

وعند كانط: التاريخ البرجماتي (Histoire Pragmatique) هو ما يهدف إلى كشف المستقبل في ضوء الحاضر. وعنده أيضًا، الاعتقاد البرجماتي (La croyance Pragmatique) هو التسليم بأمر ضرورة عملية، مثل محاولة الطبيب تشخيص المرض بصفة مبدئية [٣].

ووفقًا لكانط، التاريخ البرجماتي هو الذي يهدف إلى استكشاف المستقبل استنادًا إلى معطيات الحاضر.

ويشير ديوي في مقاله "نمو البراجماتية الأمريكية" " The Development Of American Pragmatism"، أن أول من استخدم كلمة "البراجماتية" هو "تشارلز ساندرس بيرس" Charles Sanders Peirce بوصفه أول من استخدمها، حيث يقول "ديوي": "إن أصل البراجماتية يرجع إلى تشارلز ساندرس بيرس، لقد عرف كلمة براجماتية من دراسته لكانط، وهذا يخالف الرأي السائد الذي يذهب إلى اعتبار البراجماتية نظرية أمريكية خالصة. ففي كتاب "ميتافيزيقا الأخلاق" ميز كانط بين ما هو "براجماتي" وما هو "عملي""[٤].

---

(١) ابراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، صـ ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، صـ ٣٢.
(٣) المصدر نفسه، صـ ٣٣.
(٤) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـ ١٨.

مما يتضح أن جذور البراجماتية ليست أمريكية بحتة كما يُعتقد، بل تعود جزئيًا إلى الفلسفة الكانطية. في كتاب "ميتافيزيقا الأخلاق"، قام كانط بالتفرقة بين ما هو "براجماتي" وما هو "عملي"، مما كان له تأثير على تطور هذا النهج الفلسفي.

ومع ظهور وليم جيمس[١] (١٨٤٢-١٩١٠م) الذي يُعتبر ثاني أبرز شخصيات الفلسفة البراجماتية، ساهم بشكل كبير في تطويرها حتى أصبحت "البراجماتية" لفظة تتردد في الأوساط الثقافية في كل مكان في العالم، وأصبح مبدأ بيرس وما أدخله عليه جيمس من تطوير وما أضافه عليه جون ديوي[٢] (١٨٥٩-١٩٥٢م) ثالث أعلام البراجماتية يعبر عن واحدة من أشهر الحركات الفلسفية في هذا العصر وأكثرها تأثيرًا[٣].

يتبين أن مصطلح البراجماتية يعبر عن إحدى الحركات الفلسفية البارزة، التي تمتد تأثيراتها إلى شتى مجالات المعرفة، مما منحها مكانة متميزة كإحدى أكثر الفلسفات انتشارًا وتأثيرًا في العصر الحديث.

---

(١) وُلد الفيلسوف الأمريكي في ١١ كانون الثاني ١٨٤٢م بمدينة نيويورك. وتوفي في ٢٦ آب ١٩١٠م في شوكوروا (نيو همشاير)، وهو الأخ الأكبر للروائي هنري جيمس، وابن هنري جيمس المفكر والرائي وتلميذ سويدنبورغ وداعية تحطيم الصور. يُعد مفكر أمريكا العصري وأحد أكثر كتابها تقديراً وإعجاباً. تحدر من أسرة من المهاجرين الإيرلنديين التي أصابت حظاً من الثراء. أمضى طفولته، مثله مثل أخيه، في تسفار متواصل عبر أوروبا مع ذويه، وتردد على العديد من المدارس في أقطار شتى. عدم انتظام دراسته وتنوع اهتماماته جعلا من الصعب عليه اختيار مهنة. انظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م صـــ٢٦٦.

(٢) هو الفيلسوف والمربي الأمريكي الشمالي الذي وُلد في ٢ تشرين الأول ١٨٥٩م في بورلنغتون بولاية فرمونت، «قلعة اليانكية» في نيو إنغلند شمال شرقي الولايات المتحدة، من أبوين برجوازيين؛ وتوفي في نيويورك في الأول من حزيران ١٩٥٢م. انظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، صـــ٣١١.

(٣) د. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩٨م صـــ ١٦٢.

وعند جون ديوي، البراجماتية تدور حول أن نتيجة الفعل داخلة في تكوين صدق القضية، وأن القيم، مثل أي قضية تجريبية، يمكن اختبارها(١) .

وبناءً على ما ذكره جون ديوي، تعتمد البراجماتية على أن نتائج الأفعال تسهم بشكل جوهري في تحديد صدق القضايا. كما أن القيم، مثلها مثل أي قضية أخرى ذات طابع تجريبي، يمكن اختبارها والتحقق من صحتها. تقدم هذه الفلسفة منظورًا جديدًا للمعرفة والقيم، يربط بينهما وبين التجربة العملية، مع التركيز على أهمية الأفعال ودورها في إحداث التغيير.

ثانيًا: الأسس الفلسفية والمعرفية للبراجماتية في مراحلها الأولى:

تتمتع الفلسفة بطابع مميز يميزها بوضوح عن غيرها، وهو طبيعتها الاستمرارية التي تجعلها عملية متواصلة لا تنقطع. فلا يمكن لأي إنتاج فلسفي أن يتجاهل الأفكار والمواقف السابقة، حيث يعتمد البناء المعرفي على تطوير المفاهيم الراهنة استنادًا إلى الأسس التي وُضعت في الماضي، مع توجيهها نحو آفاق المستقبل.

فالبراجماتية تُعتبر فلسفة عريقة تمتد جذورها عبر التاريخ، وهذا ما أكده وليم جيمس أحد مؤسسي البراجماتية في كتابه، فيقول إن للفرد عادة مجموعة من آراء قديمة، لكنه يواجه تجربة جديدة تشكل ضغطًا على هذه الأفكار، قد يجد نفسه مضطرًا لإعادة تقييمها أو حتى التخلي عنها(٢).

عندئذٍ يتبنى هذه الفكرة الجديدة على أنها الفكرة الصحيحة. وهي تحتفظ بالمخزون القديم للحقائق، إنما بعد إدخال تعديل طفيف جدًا عليها، تمدها بما يكفي لتجعلها تقبـــل

(١) مراد وهبه: المعجم الفلسفي، صـــ ١٣٨.

(٢) وليم جيمس: البرغماتية، نقله إلى العربية: وليد شحادة، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع دمشق – سورية ،الطبعة الأولى ٢٠١٤م، صـــ ٦٥.



الجديد، إنما من خلال رؤيته وفهمه بطرائق مألوفة حسبما هو ممكن لكل حالة[١].

وتعود جذور الفلسفة البراجماتية إلى الفيلسوف اليوناني هيراقليطس الذي قال بفكرة أن الأشياء في تغيّر متصل ومستمر، وبأنه لا حقيقة ثابتة، فالتغيّر المستمر أساس الوجود[٢].

وفقًا لهيراقليطس، فإن التغير المستمر هو السمة الأساسية للوجود، حيث يشكل جوهره. وتنعكس هذه النظرة في الفلسفة البراجماتية، التي تركز على النتائج والتجربة العملية، مبتعدة عن السعي وراء الحقائق المطلقة.

ومن بين التأثيرات البارزة للفلسفة القديمة تأثير فكر سقراط. وربما يكون أثر سقراط متأتيًا من نظرته الأخلاقية، فكيف ينظر إلى فضيلة الخير وارتباطها بعلم الإنسان، وإلى الشر وارتباطه بجهله؟ الإنسان عند سقراط "يعمل الشيء إذا وجده نافعًا ويتركه إذا وجده مضرًا مؤذيًا"[٣].

فيقرّر أن الإنسان يريد الخير دائمًا ويهرب من الشر بالضرورة [٤] ولهذا يمكن أن تكون الأخلاق السقراطية أخلاقًا نفعية[٥].

ويمكن القول إن سقراط ركز على أهمية العمل كأساس وجوهر للفضيلة البشرية، وهذه النظرية السقراطيـــة من الممكن أن يكـــون لها أثـــر في الفلسفة البراجماتية، فقـــد قـــال (بيرس) بأن "سقراط استحم في هذه المياه" ويقصد بالمياه البراجماتية. فالخير الحقيقي

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ٦٦.

(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف و الترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٣٦٥هـــ - ١٩٤٦م، صـــ ١٧.

(٣) د. علي عبد الهادي المرهج: الكتاب الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها،: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، صـــ ٣٦.

(٤) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، صـــ ٥٣.

(٥) د. علي عبد الهادي المرهج: الكتاب الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، صـــ ٣٦.



(بالنسبة لسقراط) اتصال عمل كل فرد بخير المجموع ويتحقق الخير الأقصى[١].

بالتالي، يمكن القول إن هناك نقاط التقاء بين سقراط والبراجماتية، لكن لا ينبغي الخلط بينهما تمامًا، لأن لكل منهما إطارًا فكريًا مختلفًا. ربما كان لسقراط تأثير غير مباشر على الفلسفة البراجماتية، لكن جوهر تفكيره يظل أقرب إلى البحث عن الحقيقة المطلقة وليس إلى براجماتية النتائج كما هو الحال عند بيرس وجيمس.

وتدور فلسفة سقراط حول فعل ما هو صالح، وإن الخير الحقيقي هو اتصال عمل كل فرد بخير المجموع لتحقيق الخير الأقصى. وماهية كل جزء من أجزاء العالم المنظم، أو حقيقة كل جزء فيه، تتمثل لا محالة في غايته أو خيره الخاص. كان أساس الحقيقة القصوى قائمًا في غاية الكون وخيره الأقصى. وإذا كان هذا هو أساس كل حقيقة، لكانت معرفته بالتالي مصدر كل هداية للحياة الإنسانية[٢].

بناءً على ذلك، فإن أساس الحقيقة المطلقة يرتكز على هدف الكون وخيره الأسمى. وإذا كانت هذه هي قاعدة كل حقيقة، فإن معرفتها تُعد المفتاح لتوجيه الحياة الإنسانية نحو الطريق الصحيح.

كما تُعدُّ الفلسفة الأبيقورية، التي أسسها الفيلسوف اليوناني أبيقور في القرن الرابع قبل الميلاد، واحدة من أبرز المدارس الفلسفية التي تركت أثرًا عميقًا في الفكر الغربي. وقد تميّزت هذه المدرسة بتركيزها على تحقيق السعادة الإنسانية من خلال نمط حياة بسيط والابتعاد عن الخوف والألم. كما أن للأبيقورية تأثيرًا ملموسًا في تشكيل وتطور الفلسفة البراجماتية في العصر الحديث.

---

(١) المصدر نفسه، صـ ٣٦.

(٢) د. ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عِنْدَ مُفَكري الإسلام، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٧م، صـ ٢٢.

فأثرت في الفلسفة البراجماتية بشكل واضح، وكانت صلة التقارب بين الفلسفة البراجماتية والمدرسة الأبيقورية هو أن الفكر الأبيقوري دعا إلى استخدام ألفاظ واضحة وقريبة من أذهان الناس، فدعت إلى خلاص الإنسان من الآثام والشرور التي تحدق به من جهة، وإلى تحقيق سعادته[١].

فكان للأبيقورية تأثير بارز على الفلسفة البراجماتية، حيث تشابهت المدرستان في التركيز على تحقيق الفائدة العملية، وتقديم حلول واقعية وملموسة لمشكلات الإنسان.

ومن أهم ما تأثرت به البراجماتية من المدرسة الأبيقورية هو قول الأخيرة بمبدأ اللذة، فأنكروا على الإنسان حتى الاشتغال بالعلم من أجل العلم، لأن العلم من أجل العلم لا يفيد شيئًا إذا لم يكن تحته عمل، أو إذا لم يكن مؤديًا إلى السعادة عن طريق العمل والتطبيق[٢].

فالمنفعة الأبيقورية ترى أن ما عدا العمل لا فائدة منه، كالشغل بالرياضيات، من ناحية أنها تستنتج باستمرار من افتراضات كاذبة ومفهومات غير صحيحة، كما أنها من ناحية أخرى غير مفيدة إطلاقًا. ويقول عن التاريخ والعلوم العامة: إنها تملأ الذهن بمعلومات لا فائدة فيها، لأنها لا تؤدي إلى شيء من العمل. هذا فيما يتصل بالعلوم بوجه عام، وكذلك الحال أيضًا في الفلسفة بوجه أخص، فما قد خلا من العمل، أو لم يؤدِّ إليه، أو لم يكن مرتبًا نحوه، لا فائدة فيه للفيلسوف[٣].

فالبراجماتية قد أثرت كذلك على الاشتغال بالعلم من أجل العمل، فالفكرة مفيدة لأنها صحيحة، أو أنها صحيحة لأنها مفيدة. ذلك أن مقياس الفكرة، أي فكرة، هو نفسه المقياس العام للفكرة العملية، وهي أن تكون عامة ويشهد الجميع بنتائجها[٤].

(١) د. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، مكتبة مؤمن قريش، الطبعة الاولى ١٩٨٨م، جـ ٢، صـ ٢٥.
(٢) عبد الرحمن بدوى: خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٣م، صـ ٧١.
(٣) المصدر نفسه، صـ ٧١.
(٤) د. علي عبد الهادي المرهج: الكتاب الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، صـ ٣٩.

فيمكن اعتبار أن الفلسفة الأبيقورية قد وضعت الأسس للفلسفة البراجماتية من خلال تشديدها على أهمية استخدام لغة واضحة، والتركيز على الواقعية، والسعي نحو تحقيق فوائد عملية تخدم الإنسان. وقد استلهم الفلاسفة البراجماتيون هذه المبادئ لتطوير فلسفة تهدف إلى معالجة المشكلات العملية وتعزيز جودة حياة الإنسان.

كما تُعتبر العصور الوسطى مهدًا للعديد من الأفكار الفلسفية التي شكّلت تطوّر الفكر الغربي، ومن بين هذه الأفكار تأثير "دونس سكوت" على الفلسفة البراجماتية. فقد كان واحدًا من الفلاسفة البارزين في العصور الوسطى، وقد ترك تأثيرًا عميقًا على الفكر البراجماتي لأنه أثّر بشكل كبير وواضح في فكر الفيلسوف "تشارلز ساندرز بيرس"، لدرجة أنه سمّى نفسه سكوتيًا تعبيرًا عن إيمانه القوي بأفكار "دونس سكوت"[(١)]

لذلك، يُعد فهم فلسفة سكوت أساسًا مهمًا لفهم نشأة الفلسفة البراجماتية وتطورها. فقد أثر سكوت ليس فقط على بيرس، بل ترك أثرًا بارزًا في الفكر الفلسفي الغربي بشكل عام، وما زال تأثيره ملموسًا حتى الوقت الحاضر.

ويمكننا ملاحظة تأثر بيرس بفلسفة "دنس سكوت"، لذلك صاغ ميتافيزيقا خاصة به، تميل بصورة واضحة إلى الواقعية المدرسية عند دنس سكوتس Duns Scotus. بل إنه أنشأ صيغته الخاصة من البراجماتية[(٢)].

وكان لتأثير "سكوت" على "بيرس" أثر بالغ في تشكيل رؤية بيرس للفلسفة. تعلمت (بيرس) من (سكوت) أنه بالإمكان السعي وراء الفلسفة باعتبارها علمًا منفصلًا، فعلى الرغم من أن (بيرس) قد تأثر بالعلم، ويُعد عالمًا في الفيزياء والفلك والرياضيات، وكذلك

---

(١) المصدر نفسه، صـ ٤٠.

(٢) برتراند رسل: حكمة الغرب الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة: د. فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٠م جـ٢، صـ ٢٤٥.



هو أحد فلاسفة العلم، إلا أنه آمن إيمانًا كاملًا بأن الفلسفة مستقلة عن العلم وهي التي تُسيّره، الأمر الذي أعلنه (دونس سكوت) قبل (بيرس) بفكرة "استقلال الفلسفة عن علم اللاهوت". والفرق ليس كبيرًا بين مطالبة (سكوت) بفصل الفلسفة عن اللاهوت، ومطالبة (بيرس) بفصل الفلسفة عن العلم[١].

ذلك أن المدة التي عاش فيها سكوت كانت الفلسفة في خدمة اللاهوت، وكانت موضوعات البحث الفلسفي لا تخرج عما تبتغيه الكنيسة. خرج (دونس سكوت) مدافعًا عن الفلسفة من السيطرة اللاهوتية، وكان لجهود سكوت تأثير كبير على تطور الفلسفة في العصور الوسطى وبعدها. مهد الطريق لظهور تيارات فلسفية جديدة وألهم فلاسفة آخرين للتفكير بشكل نقدي ومستقل.

أما الثاني أي (بيرس)، فالمدة الزمنية التي عاش فيها قد شهدت سيادة مجال البحث العلمي، على العكس من البحث الفلسفي الذي بدأ بالانحسار وبدأت موضوعاته تبدو وكأنها موضوعات علمية بحتة. وكانت محاولة (سكوت) أشبه بثورة على النظم المعرفية التي كانت سائدة في عصره، وما كان (بيرس) ليختلف عن (سكوت)، فقد سعى للبحث عن الجوانب الفلسفية في العلم وكيف يمكن للفلسفة أن تتخذ إطارًا علميًا. وهكذا أصبح يتأمل في الجوانب العلمية للفلسفة، مما جعله أحد دعاة فلسفة العلم في عصره[٢].

بناءً على ذلك، يُعد استيعاب فلسفة 'سكوت' أمرًا جوهريًا لفهم أصول الفلسفة البراجماتية وتطورها. فقد كان لسكوت تأثيرٌ يمتد إلى ما هو أبعد من بيرس، إذ ترك أثرًا مميزًا في الفكر الفلسفي العام، ولا يزال تأثيره قائمًا حتى الآن.

كما أسهم بعض الفلاسفة التجريبيين في الفكر البرجماتي، فكان لفرنسيس بيكـــون

---

(١) د. علي عبد الهادي المرهج: الكتاب الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، صـــ ٤١.

(٢) المصدر نفسه، صـــ ٤١.

(١٥٦١ – ١٦٢٦م) دور مؤثر في تشكيل الفكر البرجماتي، والتي دارت تجربته حول تحديد دور العقل في ضوء الملاحظة والتجربة. ذلك أن العقل أداة للتجريد والتصنيف والمساواة والمماثلة، فإذا تُرك يجري على سجيته انقاد لأوهام طبيعية فيه، ومضى في جدل عقيم[١].

مما يتضح أن بيكون يرى أن العقل إذا تُرك دون تنظيم قد يؤدي إلى صياغة نظريات غير واقعية قائمة على الأوهام والأحكام الخاطئة. لذلك، شدد بيكون على أهمية استخدام المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجريب لتوضيح الأفكار وتأسيسها على أسس واقعية.

لذلك تتوافق هذه الأفكار بشكل كبير مع مبادئ الفلسفة البراجماتية، التي تركز على العلاقة الوثيقة بين الفكرة والعمل، وترى أن المعنى الحقيقي للأفكار يتجلى في آثارها العملية. وكما أصر بيكون على أن المعرفة ينبغي أن تُبنى على التجربة، يرى البراجماتيون أن حقيقة أي فكرة تعتمد على نتائجها العملية.

وعليه، يمكن القول إن بيكون أسهم في تمهيد الطريق للفلسفة البراجماتية من خلال تأكيده على دور التجربة في تشكيل المعرفة وربط الفلسفة بالواقع العملي. وقد استفاد الفلاسفة البراجماتيون من أفكاره في بناء مفاهيمهم حول المعرفة والحقيقة.

أما جون لوك، الفيلسوف الإنجليزي البارز وأحد أعمدة الفلسفة التجريبية في القرن السابع عشر، فقد لعب دورًا محوريًا في تشكيل الفكر الفلسفي الغربي. وكان لجهوده أثر كبير في وضع الأسس التي استندت إليها الفلسفة البراجماتية فيما بعد.

أكدّ (جون لوك) (١٦٣٢-١٧٠٤م) على أن معرفتنا مقصورة على التجربة الظاهرة والباطنة، فيتعين على الفلسفة أن تقتنع بما يُدرك بالملاحظة والتجربة، وأن تعدل عن الميتافيزيقا وعن المناهج العقلية[٢].

---

(١) د. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، جـ ٢، صـ ٢٦٦..

(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، صـ ٢٧٠.

فقد أكد جون لوك أن المعرفة تقتصر على ما يتم إدراكه من خلال الحواس والتجربة، رافضًا فكرة وجود أفكار فطرية موروثة في العقل قبل اكتساب الخبرة. كما دعا إلى إعادة صياغة الميتافيزيقا التقليدية التي اعتمدت على مفاهيم مجردة وبعيدة عن الواقع التجريبي، لتتماشى مع النهج التجريبي للمعرفة الذي يربط الفكر بالتجربة العملية.

فيعتبر نقد جون لوك للأفكار الفطرية خطوة محورية في تأسيس الفلسفة التجريبية، حيث أوضح أن المعرفة لا تنبع إلا من خلال التجربة الحسية. وقد شكل هذا المبدأ أساس الفلسفة التجريبية التي سيطرت على الفكر الفلسفي الغربي لقرون عدة.

أما جورج بركلي، الذي يُعتبر من أبرز الفلاسفة التجريبيين الذين تبعوا لوك، فقد سعى إلى تطوير فلسفة لوك بجعلها أكثر تجريبية، وقدم مبدأه الشهير حول الوجود، الذي ينص على أن كل ما يوجد هو ما يُدرك حسيًا، مما عمّق الجذور التجريبية للفكر الفلسفي.

وما جاء به باركلي (١٦٨٠ – ١٧٥٣م) الذي يُعد في المرتبة الثانية من التجريبيين الإنجليز، والغاية عنده تنقية فلسفة لوك من العناصر المنافية للتجريبية، فوضع أساسًا لفلسفته مبدأ الوجود وإدراك أن المعرفة الحقة هي المقصورة على ما يبدو للشعور بأعراض حسية، وأن ما لا يبدو محسوسًا وهمٌ محض[١].

فيُعد جورج بركلي من أبرز الفلاسفة التجريبيين الإنجليز، حيث قدّم إسهامات بارزة في تطوير الفلسفة التجريبية التي أسّسها جون لوك. وقد عمل بركلي على تنقية فلسفة لوك من العناصر التي رآها غير منسجمة مع مبدأ التجربة الحسية، مما جعله أحد أهم الشخصيات في تعزيز الفكر التجريبي.

ويؤكد وليم جيمس أن باركلي انتقد الأشياء المادية بقوة، حتى إن اسمه تردد كثيرًا في كل ما جاء في الفلسفة لاحقًا، فاعتمد على الفكرة السكولاتية للشيء المادي الـــذي لا

(١) المصدر نفسه، جـــ ٢، صـــ ٢٧٠.

تستطيع مقاربته الكائن وراء العالم الخارجي[١].

وهذا ما أكده باركلي حين قال إنه العامل ذو التأثير الأقوى من جميع العوامل التي تختزل العالم الخارجي في اللاواقع، فقال: ألغِ هذه المادة وآمن بأن الله الذي تعرفه وتدركه وتستطيع التقرب إليه، أرسل لك العالم الملموس مباشرة، وأنت تعمل على تثبيت هذا الأخير وتعززه وتدعمه بفعل سلطته الربانية[٢].

يمكن القول إن نقد جورج بركلي للمادة يحمل طابعًا براجماتيًا بامتياز، حيث يمكن اعتبار البراجماتية امتدادًا مكملًا للتيار التجريبي الذي سبقها.

فوصف نقد بركلي للأشياء المادية بأنه "براجماتي" هو وصف دقيق، نظرًا للتشابه الواضح بين فلسفته ومبادئ البراجماتية، رغم أنه عاش قبل ظهور هذه الفلسفة كمدرسة مستقلة.

فيشترك بركلي مع الفلاسفة البراجماتيين في التركيز على التجربة الحسية ودورها في تشكيل المعرفة، بالإضافة إلى التأكيد على التفاعل النشط مع العالم لفهم الحقائق.

ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار بركلي أحد رواد الفلسفة البراجماتية، حيث أسهم في تمهيد الطريق أمام البراجماتيين من خلال نقده الجذري للمادة وإبرازه لدور العقل النشط في تكوين المعرفة.

ومن جهة أخرى، اعتمد ديفيد هيوم المنهج التجريبي كوسيلة للوصول إلى الحقائق وتقديم البراهين، مما جعله مساهمًا كبيرًا في تطور الفكر الفلسفي المرتبط بالعلوم والتجربة، وعزز مكانة الفلسفة التجريبية كأساس لفهم الواقع.

---

(١) وليم جيمس: البرغماتية، صـــ ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، صـــ ٨٩.

فقد وصف هيوم (١٧١١-١٧٧٦م) منهجه بأنه منهج تجريبي مؤسس على قاعدة في العلوم للوصول إلى البرهان، حيث يعتقد أن اليقين موجود فقط في نطاق الفكر ولا يكون في مجال الحس. ويرى أن المعارف نفسها ليست على درجة سواء، فمنها ما هو قائم على البرهان ومنها ما هو قائم على التخمين. وعلى هذا تصبح درجات الإثبات عنده على مراحل، أعلاها اليقين المنطقي، ويتلوها درجة الاحتمال البرهاني، وأدناها درجة الاحتمال التخميني[(١)].

مما يشير إلى أن التجربة هي الحكم الوحيد على صحة القضايا التركيبية، وهو مبدأ يؤدي إلى النتيجة القائلة بأن التنبؤات لا يمكن تبريرها[(٢)].

فالتنبؤات المستقبلية لا يمكن تبريرها بشكل قاطع، لأن المعرفة المستمدة من التجربة تعتمد على الملاحظات السابقة، لكنها لا تضمن بالضرورة صحة القضايا المستقبلية أو تطابقها مع الأحداث القادمة.

وهذا ما أكده جيمس بحديثه عن Hume أنه استخدم نقدًا براجماتيًا مشابهًا لفكرة المادة أو الشيء الروحي[(٣)] .

فيتضح ان استخدام جيمس للنقد البراجماتي لتحليل مفهوم المادة أو الروحانيات تجسيدًا جوهريًا للفلسفة البراجماتية، التي تركز على الفوائد العملية للأفكار ونتائجها الواقعية. وقد أسهم هذا المنهج في تطوّر الفلسفة البراجماتية، مما جعلها وسيلة فعالة لفهم العالم المحيط بنا.

---

(١) د. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، جـــ ٢، صـــ ٢٧٣.

(٢) هانز ريشنباخ :نشأة الفلسفة العلميّة، ترجمة د. فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، صـــــ ١١٠.

(٣) وليم جيمس: البرغماتية، صـــ ٨٩.

فالبراجماتية تؤكد على فعالية العقل ولا تلغي دوره المعرفي في الوصول إلى الحقيقة، بينما تميل المذاهب العقلية إلى تأكيد الذهني على حساب المادي. وهي تفاؤلية الطابع، تنشد الوحدة وتفضل التفكير الانعكاسي على حساب التجربة. ويصف جيمس من يميلون إلى الأخذ بهذه النظريات بأنهم أصحاب عقول رقيقة، لأن النظريات التجريبية أكثر ميلًا إلى الاهتمام بالعالم المادي(١) .

فتعد البراجماتية والمذاهب العقلية مدخلين مختلفين لفهم العالم والمعرفة. في حين تركز البراجماتية على التجربة والتطبيق العملي، فإن المذاهب العقلية تدور حول العقل النظري والتحليل الفكري. كل منهما يقدم تصورًا فريدًا للواقع، مع ما يتضمنه ذلك من مزايا وعيوب.

وقد وصف وليم جيمس من يؤمنون بتلك النظريات بأنهم أصحاب تفكير هش، معتقدًا أن النظريات التجريبية تركز بشكل أكبر على العالم المادي. كما تعتبر الفلسفة النفعية إحدى المدارس الفكرية التي كان لها تأثير بالغ على البراجماتية، إذ تشترك الفلسفتان في السعي إلى التأكيد على النتائج العملية وأهمية تطبيق الأفكار في الحياة اليومية.

فالنفعية كمذهب فلسفي تُعد مدرسة إنجليزية خالصة، وضع نظرياتها جيرمي بنتام (١٧٤٨ – ١٨٣٢م)، ثم جاء تلميذه جون ستيوارت ميل، فروّج للمذهب ودافع فيه عن مبدأ المنفعة، مدخلًا عليه تعديلات هامة على مذهب سلفه بنتام(٢).

الذي سارع إلى القول بأن الطبيعة وضعتنا تحت سيطرة سيدين مطلقين هما اللذة والألم، فهذان السيدان يتحكمان بتصرف البشر كليًا، وهما اللذان يمليان علينا ما يجب فعله وما علينا أن نقوم به. فهما وراء تحديد الصواب والخطأ، الخير والشر، وراء سلسلة العلل

---

(١) برتراند رسل: حكمة الغرب، جـ٢، صـ ٢٤٧.

(٢) د. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، جـ ٢، صـ ١٣٥١.

والمعلولات. ومهما ادعينا قولًا بأننا لا نخضع لسلطة هذين السيدين، فإن الواقع يكذبنا باستمرار. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الفلسفة الصحيحة هي التي تأخذ بعين الاعتبار هذا الواقع. ومبدأ المنفعة يعترف بخضوعنا لهذا الواقع ويتحمل مسؤوليته حين يؤسس نظامه الفلسفي، الذي يهدف إلى نشر السعادة بين الناس عن طريق العقل والقانون[١].

وهنا يبرز السؤال الأهم: ما هي هذه المنفعة التي ستجلب السعادة لكل فرد من الناس؟ وما هو المبدأ الذي إذا فُضِّل ستعم السعادة الحقيقية في شتى أرجاء المجتمع؟ هنا يؤكد بنتام أن المنفعة هي القدرة الكافية في غرض معين على إنتاج ربح أو نفع أو امتياز أو لذة أو خير أو سعادة. وهذه كلها معانٍ تكاد تكون مترادفة وتشكل الوجه الإيجابي للمنفعة[٢] .

فيُعتبر مفهوم المنفعة، كما يقدمه بنتام، جوهريًا في الفلسفة النفعية، حيث يركز على تحقيق أقصى درجات السعادة والرفاهية للأفراد. تُقاس المنفعة بناءً على قدرتها على تحقيق أهداف إيجابية مثل الربح، اللذة، أو التفوق. كما أن هذه المفاهيم مترابطة وتشكل الأساس لفهم الهدف من الأفعال أو السياسات التي تسعى لتعزيز المنفعة العامة.

ولقد سار جون ستيوارت ميل على خطى أستاذه بنتام في الدفاع عن مبدأ المنفعة، فقال إن أعمال الإنسان تكون على صواب كلما كانت تبغي جلب السعادة، وهي على خطأ كلما جلبت نقيض السعادة. والسعادة في نظره هي اللذة وغياب الألم. وفقدان اللذة والتحرر من الألم هما الغاية الأخيرة التي ينشدها الإنسان[٣].

إذن، يمكن القول إن الفلسفتين النفعية والبراجماتية تشتركان في الهدف الرئيسي الذي تسعيان إلى تحقيقه، وهو تعزيز النفع الذي يُعد المصدر الأساسي للسعادة والرفاهية

---

(١) المصدر نفسه، جـ ٢، صـ ١٣٥١.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، صـ ١٣٥١.

(٣) د. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، جـ ١، صـ ٧٩٣.

الإنسانية. تركز كلتا المدرستين على النتائج والفوائد التي تترتب على أفعال الإنسان وقراراته، حيث يتم تقييم الأمور استنادًا إلى المنفعة العملية والملموسة التي تحققها.

كما كان الفيلسوف الألماني (كانط) من أبرز الشخصيات الفلسفية التي أثرت في فكر الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس، فقد تعرف بيرس على فلسفة كانط منذ صغره.

فيؤكد (بيرس) أن البراجماتية قد تحددت وتشكلت معماريًا أخذًا عن كانط. وقد قال (بيرس): "إنني الوحيد من البراجماتيين الذي دخلت ساحة الفلسفة من باب كانط، إلا أن أفكاري كانت تكتسي بالنبرة الإنكليزية"(١).

اتفق كل من بيرس وكانط على أن المعرفة ذات طبيعة اختيارية، مما دفع بيرس إلى الاتفاق مع كانط على أن العقل يشيد بمقدار ما للنظام في المعرفة؛ ثم أخذ بيرس بعد ذلك في بيان أننا لو أمعنا النظر في حقيقة الفكرة أو المدرك العقلي، لاستطعنا التوفيق بين ما هو صحيح من بين التفسيرات المتعارضة عند كل من أرسطو وكانط (٢) .

وعلى الرغم من أن كانط لم يوافق على الموقف الفلسفي الأساسي للبراجماتية، إلا أنه يُعتبر رائدًا لها من جوانب متعددة نظرًا لتأثير أفكاره على تطور الفكر الفلسفي. فقد أسهمت نظرياته حول المعرفة، والتجربة، والعقل في وضع الأسس التي استندت إليها البراجماتية من عدة وجوه:

أولًا: في تمييزه بين أنشطة العقل الخالص وأنشطة العقل العملي، حيث أقر بأن السلوك الأخلاقي يعتمد على أفكار مثل حرية الإرادة، وهو ما وسعه البراجماتيون بربط الأفكار بوظائفها(٣).

---

(١) د. علي عبد الهادي المرهج: الكتاب الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، صــ ٤٧.

(٢) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صــ ١٠٢.

(٣) الدكتور محمد مالك رضوان: مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية (١٤٠٤ هـــ ـــ ١٩٨٤ م) صـــ ٤٨.

ثانيًا: يقر البراجماتيون بما ذهب إليه كانط من أهمية الذهن كعامل فعّال في تفسير التجربة، ولكنه بالطبع لم يقر بالمقولات الذهنية التي تقوم بالدور الأساسي في نظرية المعرفة الكانطية.

ثالثًا: يقر البراجماتيون بالنقد الكانطي للميتافيزيقا التأملية، ويصرّون تمامًا على أن الأفكار لا يمكن أن تشير إلى موضوعات تقع خارج نطاق الخبرة الحسية [١].

فيظهر بوضوح التفكير الكانطي في فلسفة بيرس، حيث تأثرت الكثير من أفكاره بعمق بفلسفة كانط، على الرغم من التزام بيرس بالبرجماتية.

فتأثير كانط على فكر بيرس كان عميقًا وملحوظًا، ويتجلى ذلك في العديد من جوانب فلسفته. وعلى الرغم من أن بيرس يُعتبر من أبرز مؤسسي البرجماتية، إلا أن فلسفته لم تخلُ من بصمات كانط.

ويمكن القول إن بيرس استفاد من المنهج التحليلي لكانط في سعيه لفهم الطبيعة المعرفية للعقل البشري وتفسيره للواقع. هذا التداخل بين الفكر الكانطي والبرجماتية في فلسفة بيرس يعكس قدرة الفلاسفة على الاستفادة من أفكار من سبقوهم، مع تطويرها وإعادة صياغتها لتتناسب مع السياقات الجديدة.

تعقيب:

بناءً على ما تم تقديمه سابقًا، يمكن استنتاج ما يلي:

١. الاستمرارية في الفلسفة: تتسم الفلسفة بطبيعتها التراكمية، حيث تبني على الأفكار السابقة وتعيد تشكيلها وفقًا لمتطلبات الحاضر والمستقبل. تنطبق هذه الخاصية على البراجماتية، التي تعتمد على التجربة والتطبيق العملي كنهج فكري ديناميكي.

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ٤٩.

٢. الجذور التاريخية: يمكن تتبع أصول البراجماتية إلى الفيلسوف اليوناني هيراقليطس، الذي أكد على الطبيعة المتغيرة للواقع، وهو ما ينسجم مع المبدأ الأساسي للبراجماتية القائم على الحركة المستمرة ورفض الحقائق المطلقة.

٣. تأثير سقراط: رغم الاختلافات الفلسفية، فإن هناك تقاطعًا بين فكر سقراط والمبادئ البراجماتية، حيث ركّز كلاهما على العمل كوسيلة لتحقيق الخير. يمكن اعتبار هذا التشابه تأصيلًا لفكرة أن صحة الفكرة تقاس بمدى فائدها العملية.

٤. الأثر الأبيقوري: تأثرت البراجماتية بالفكر الأبيقوري من حيث التركيز على الفائدة العملية وتبسيط المفاهيم الفلسفية بحيث تصبح أقرب إلى الواقع اليومي، مما يعكس تشابهًا بين المدرستين في السعي إلى تحقيق السعادة عبر العمل والتجربة المباشرة.

٥. إسهامات العصور الوسطى: ترك الفيلسوف "دونس سكوت" بصمته على الفكر البراجماتي، خاصة في تأثيره على بيرس، الذي تبنى فكرة استقلال الفلسفة عن العلم، على غرار مطالبة سكوت بفصل الفلسفة عن اللاهوت، مما يؤكد على استمرارية تطور الفلسفة البراجماتية عبر الزمن.

٦. التأثير التجريبي الإنجليزي: ساهم فرنسيس بيكون في تعزيز الأسس البراجماتية من خلال تأكيده على أهمية التجربة والملاحظة في تكوين المعرفة. استمر هذا التأثير مع جون لوك، الذي رفض الميتافيزيقا وأكد أن المعرفة تُبنى على التجربة الحسية.

٧. إسهام جورج بركلي: قدّم بركلي نقدًا للمادية يتماشى مع المنظور البراجماتي، إذ ركّز على أن المعرفة تعتمد على الإدراك الحسي، مما جعله همزة وصل بين الفلسفة التجريبية والاتجاه البراجماتي.

٨. أثر ديفيد هيوم: شدد هيوم على أن المعرفة يجب أن تستند إلى التجربة، لكنه أشار إلى أن التنبؤات المستقبلية لا يمكن تأكيدها يقينيًا، وهو ما يمثل جانبًا نقديًا للبراجماتية

فيما يتعلق بالاعتماد على التجربة السابقة في استقراء المستقبل.

٩. موقف وليم جيمس: أكد جيمس أن الفلسفة البراجماتية تعطي الأولوية للفائدة العملية للأفكار، مشيرًا إلى أن النظريات المستندة إلى التجربة أكثر واقعية من الفلسفات العقلية التي تركز على المفاهيم النظرية المجردة.

وبناء عليه:

تُعد الفلسفة البراجماتية امتدادًا لتطور الفكر الفلسفي على مر العصور، حيث استمدت مبادئها من الفلسفة الإغريقية، والفكر الأبيقوري، والمدارس الفلسفية في العصور الوسطى، والتجريبية الحديثة. وتتميز هذه الفلسفة بتركيزها على النتائج والتجربة العملية، مما يجعلها فلسفة واقعية تسعى إلى معالجة القضايا الفعلية بدلًا من البحث عن حقائق مطلقة.

المبحث الثاني

الأسس الفلسفية والمعرفية للبراجماتية التقليدية الكلاسيكية

يُعتبر كل من تشارلز ساندرز بيرس، وويليم جيمس، وجون ديوي من الشخصيات البارزة في الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية، حيث أسهموا في تطوير أسسها النظرية التي شكلت قاعدة البراجماتية الحديثة. ركزت فلسفتهم على أهمية التطبيق العملي واعتبار النتائج معيارًا للحقيقة والقيمة، مما جعلهم من أبرز المؤثرين في تطور الفكر الفلسفي الغربي.

ولد مؤسسو الفلسفة البراجماتية الأربعة في أمريكا، وهم: تشارلز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤)، وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠)، جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢)، وجورج هربرت ميد (١٨٦٣-١٩٣١). البراجماتية هي فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بأمريكا، فهي فلسفة لا يعود تاريخها إلى أكثر من قرن من الزمان. وهي ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا وبين البيئة الجديدة التي نشأوا فيها[١].

أولًا: تشارلز ساندر بيرس (١٨٣٩ – ١٩١٤م):

سرعان ما انتقل بيرس، منذ عام ١٨٦٨م، من الفلسفة الكانطية إلى الواقعية، متأثرًا بفلسفة "الحس المشترك" التي تبناها الفيلسوف الإنجليزي توماس ريد [٢].

فتعتبر فلسفة الحس المشترك منهجًا يعتمد على الأفكار البديهية التي يتفق عليها العقلاء دون الحاجة إلى تعقيدات فلسفية أو منطقية عميقة.

كما اتصل بيرس بمعظم زعماء الفكر الأمريكيين في عصره، ومن بينهم جيمس ورايت وهولمز، ولكنه لم يحظَ بالتقدير الأكاديمي الذي يستحقه، ولم يُعيَّن قط في أي

(١) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، صـــ٨٢.
(٢) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ٩٦.

منصب جامعي دائم، فأمضى معظم الشطر الأخير من حياته في شبه اعتزال حتى مات في فقر نسبي عام ١٩١٤م[١] .

فتُعد قصة حياة تشارلز ساندرز بيرس قصة فيلسوف سبق عصره و لم يحظَ بالتقدير الذي يستحقه إلا بعد وفاته. ومع ذلك، لا تزال أفكاره ذات أهمية كبيرة في الفلسفة المعاصرة، وتُعتبر أساسًا للعديد من التيارات الفلسفية الحديثة.

تميز بيرس بمنهجه التجريبي الذي اكتسب من خلاله عادات التفكير المنطقي والعلمي، رفض بيرس تسمية مذهبه بـــ"المذهب العملي" (Practicalism)، وهو الاسم الذي اقترحه عليه بعض أصدقائه. ومن جهة أنه منطقي قبل كل شيء، فقد كان يهمه فن التفكير الواقعي، ويهتم بوجه أخص – فيما يتصل بالمنهج البرجماتي – بالفن الذي يجعل التصورات واضحة، أو بوضع تعاريف كاملة ومثمرة تتلاءم مع روح الطريقة العلمية[٢].

فقد ركز بشكل أساسي على المنهج البراجماتي، الذي يسعى إلى توضيح المفاهيم ووضع تعريفات دقيقة وشاملة، مما جعله الركيزة التي أسس عليها فلسفته البراجماتية.

.وقد أوجز بيرس موقفه الفلسفي فيقول: إن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي أن يصور بنية الكون تصويرًا لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي، مستعينًا في ذلك بكل ما قد سبقني إليه الفلاسفة السالفون، لكني لن أصطنع في هذا طرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها، وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يتكشف لنا من حقائق، ولذلك فهو يتميز أول ما يتميز بقابليته للصواب والخطأ وفق ما تقدمه المشاهدة لنا بعدئذ من شواهد[٣].

---

(١) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صـــ ١٠٢.

(٢) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، صـــ٨٤.

(٣) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية ،در الشروق، صـــ ٢٠٤.

فيعتقد بيرس أن الفلسفة ينبغي أن تكون مرنة وقادرة على التطور، مما يتيح مراجعة الأفكار وإعادة تقييمها استنادًا إلى الأدلة والملاحظات المستجدة.

يمكن اعتبار بيرس من أنصار فكرة أن الفلسفة تمثل امتدادًا للعلم، حيث شدّد على أهمية تبنّي الأدوات والأساليب العلمية. وقد منح هذا التوجه فلسفته طابعًا عمليًا وأكثر ارتباطًا بالواقع، مما أسهم بشكل كبير في التأثير على مسار الفلسفة في القرن العشرين.

وأهم ما يميز فلسفة بيرس هو أن نصفها بأنها فلسفة علمية، وهذا التصنيف ينبع من اعتمادها على الوقائع التجريبية. لكن هذه الصفة بدورها تحتاج إلى تحديد، فما هي الخصائص التي اجتمعت في تلك الفلسفة لتجعلها «علمية»، أليس صاحبها هو نفسه عالم في الفيزياء والكيمياء؟ أهي فلسفة تقدم لنا النظريات والقوانين عن هذه الظاهرة من ظواهر الطبيعة أو تلك؟ ... لكن الذي يجعلها علمية لا تأملية هو أنها إذا ما نسبت إلى الكون حقيقة ما، اعتمدت في ذلك على تأييد الوقائع التجريبية[1] .

فيعكس هذا النهج تأثُّر بيرس بخلفيته العلمية في مجالي الفيزياء والكيمياء، مما أضفى على فلسفته طابعًا علميًا مميزًا يُفرِّقها عن غيرها من الفلسفات.

فركز بيرس على الطابع التجريبي للعقل وارتباطه بالجانب العملي، لكونه فيلسوفًا مهتمًا بهذا الجانب. ويقول بصدد الشخص التجريبي الذي تكون عقله في المعمل ما نصه: «أي قضية تتقدم بها إليه فإما أن يفهم منها أن شيئًا ما حين يوضع موضع التجربة أمكن ويمكن دائمًا إجراؤه بالفعل بحيث يتولد عنه تجربة من نوع معين، وإما أنه لا يفهم لقولك أي معنى على الإطلاق». وهكذا أنشأ بيرس نظريته القائلة بأن الدلالة العقلية للفظ أو العبارة تقوم بوجه الإطلاق على أثرها في السلوك[2].

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ٢٠٤.

(٢) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، صـــ٨٥.

كما تناولت ميتافيزيقا بيرس التجريبية مفهوم الاستمرار بطريقة تختلف عن توجهات جيمس، فلم يكن منهج بيرس الفلسفي محاولة لتفسير التجربة من منظور ميتاسيكولوجي، بل كان أشبه بخريطة للتجربة، تمثل خطوة تمهيدية نحو البحث العلمي(١).

ويبدو أن النزعة العقلية الميتافيزيقية لدى بيرس جاءت نتيجة يقينه العميق بالمنطق والتحليل المنطقي، مما يعكس تأثره بالفلسفة العقلانية التي تعتمد على التفكير المنهجي لفهم القضايا الميتافيزيقية (٢) .

فقد ركز بيرس على الطبيعة التجريبية للعقل وعلاقته بالجانب العملي، مما شكّل الأساس لفلسفته البراجماتية. تقدّم هذه الفلسفة رؤية جديدة للمعرفة والمعنى، حيث تدمج بين التفكير والعمل، مع تعزيز الارتباط الوثيق بين النظرية والتطبيق.

وهكذا أنشأ بيرس نظريته القائلة بأن الدلالة العقلية للفظ أو العبارة تقوم بوجه الإطلاق على أثرها في السلوك، ثم تطورت نظريته في مقالته المشهورة كيف نجعل أفكارنا واضحة، فالمعنى المعقول لأي قضية يقع في المستقبل، ولكن أي صورة من بين آلاف الصور التي يمكن أن تكون عليها القضية هي التي يجب أن نقول عنها إنها معناها بالذات؟ إنها عند البرجماتي تلك الصورة التي يمكن تطبيقها على السلوك الإنساني.(٣).

فيؤكد بيرس أن المعنى الحقيقي لأي فكرة أو قضية يكمن في نتائجها العملية المستقبلية. وقد وضع تصورًا متكاملًا للدلالة العقلية، مشيرًا إلى أن المعنى الحقيقي لأي فكرة يتحدد بالآثار المستقبلية التي تنعكس على السلوك البشري.

---

(١) هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة: الدكتور محمد فتحي الشنيطي ،مكتبة النهضة المصرية،١٩٦٤م، صـــ ٣٧٥.

(٢) تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، صـــ٩٣.

(٣) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي ، صـــ ٨٥.

وتمحورت الإشكالية الأساسية في نظرية المعرفة الحديثة عند بيرس حول كيفية التوفيق بين الطابع الذاتي للفكر وبين ادعائنا بقدرتنا على معرفة الواقع الخارجي المستقل عن أفكارنا. لم تكن هذه المسألة تمثل معضلة بالنسبة لأرسطو، إذ رأى أن العقل يكتشف نظامًا موجودًا بالفعل في العالم الخارجي. غير أن كانط قلب هذا التصور رأسًا على عقب، مدعيًا أن النظام في المعرفة لا ينبثق من الواقع ذاته، بل ينشأ من العقل وحده. لاحقًا، تبنّى بيرس هذه الإشكالية الحديثة وسعى إلى تقديم حله الخاص لها(١).

ومن الواضح أن بيرس، رغم تأثره بالمنطق الأرسطي، فإنه أعاد صياغته بمنهجه الخاص، حيث تبنّى فكرة أن العقل يكتشف النظام في الواقع، لكنه أضاف دور التجربة والاحتمالية، مؤكدًا أن المعرفة تتطور من خلال التفاعل المستمر بين الفكر والواقع.

وتقبّل بيرس المشكلة الحديثة وقدم لها حلّه الخاص. بدأ بيرس بالقول بأننا على وعي بكوننا نتصل في خبرتنا بالواقع مباشرة، ويتكون الواقع من الأشياء الكائنة سواء فكرنا فيها أو لم نفكر؛ وإلى هنا يتفق بيرس مع أرسطو. ولكن من الواضح أننا نتعامل مع الأشياء تبعًا لما لدينا عنها من أفكار، بيد أن أفكارنا إن هي إلا تكوينات (عقلية) كوّناها بعد اختيار عناصرها، فهي مؤسسة على خبرة جزئية بالأشياء، هذه الخبرة تكون مصبوغة بتاريخنا وظروفنا ومرامينا(٢).

فيعتقد بيرس أن جوهر المشكلة في فلسفة المعرفة يتمثل في فهم العلاقة بين العالم الخارجي وأفكارنا عنه. فهو يرى أننا نتفاعل مباشرة مع الواقع، لكن تفسيرنا له يتم من خلال الأفكار التي نصوغها بناءً على تجاربنا الحياتية. هذه الأفكار لا تمثل انعكاسًا دقيقًا للواقع، بل هي تشكيلات عقلية تتأثر بتاريخنا الشخصي وظروفنا البيئية.

---

(١) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صـ ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه، صـ ١٠٢.

والقول بطبيعة المعرفة الاختيارية قاد بيرس إلى الاتفاق مع كانط بأن العقل يُنشئ النظام في المعرفة، ثم أخذ بيرس بعد ذلك في بيان أننا لو أمعنّا النظر في حقيقة الفكرة أو المدرك العقلي، لاستطعنا التوفيق بين ما هو صحيح من بين التفسيرات المتعارضة عند كل من أرسطو وكانط [١].

فيؤكد بيرس أن العقل يقوم بدور نشط في بناء المعرفة، مما يجعله يلتقي مع كانط في هذا الجانب. ومع ذلك، يؤكد بيرس أيضًا على وجود واقع خارجي مستقل، منسجمًا بذلك مع رؤية أرسطو. ويعتقد أن الفكرة أو التصور العقلي تمثل المفتاح لفهم العلاقة المعقدة بين العقل والواقع.

كما وضع بيرس قاعدة براجماتية تُركز على الفهم العملي للأمور، حيث تعتمد على تحليل الآثار المحسوسة التي تنتج عن الأشياء. ووفقًا لهذه القاعدة، فإن فهمنا لأي شيء يتحدد بناءً على الآثار العملية التي يمكن أن تترتب عليه.

فيرى بيرس أن هذه القاعدة يمكن أن تكون أداة للتمييز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الزائفة. فالفكرة الصحيحة عن موضوع ما تمكننا من التنبؤ بما سوف يحدث عندما نقدم على التعامل مع ذلك الموضوع [٢].

بناء على هذا تُعدّ قاعدة بيرس البراجماتية أداة فعّالة لفهم طبيعة المعرفة وعلاقة الأفكار بالواقع. وعلى الرغم من تعرضها لبعض الانتقادات، فإنها لا تزال تحتفظ بمكانة بارزة وأهمية كبيرة في الفلسفة الحديثة.

كما استند بيرس إلى مفهوم تحقيق الفروض، تلك الفكرة التي عرف أهميتها من العلم الحديث؛ والواقع أن كل أفكارنا في رأي بيرس شبيهة بالفروض العلمية إلى حد كبير[٣] .

---

(١) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـ ٩٨.

(٢) المصدر نفسه، صـ ٩٨.

(٣) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صـ ١٠٣.



فتشير فكرة بيرس حول الفروض إلى دعوة لاعتماد منهج علمي في التفكير، يقوم على التعامل مع جميع الأفكار باعتبارها فروضًا قابلة للتدقيق والتحقق.

وقد عرّف "بيرس" الفكرة بأنها مجال الفعل Plan of action وكان هذا التعريف الجديد للفكرة هو جوهر الانقلاب الذي أحدثته الفلسفة البراجماتية في الفكر المعاصر[١] .

فيمثل هذا التعريف جوهر الفلسفة البراجماتية التي تركز على التطبيق العملي للأفكار ونتائجها الواقعية.

كما يعبر عن التحول العميق الذي أسهمت الفلسفة البراجماتية في إحداثه داخل الفكر المعاصر.

والفكرة عند البراجماتية، الذين هم على مذهب بيرس، أن الفكرة هي خطة العمل، وقيمتها تتحدد بنجاح تلك الخطة لأنها ليست في الحقيقة أفكارًا بالمعنى الذي يحدده البراجماتيون. بل إن هناك العديد من الفلاسفة الذين يتحدثون عما يسمونه «أفكارًا» وهي في الحقيقة لغو لا ينفع ولا يشفع. وإذن، فمقياسنا هو: ماذا يمكنني أن أصنع بهذه الفكرة أو بتلك؟ وبهذا الذي أستطيع أن أصنعه يتحدد «معنى» الفكرة[٢].

ويمكن تعريف المفهوم البراجماتي للفكرة بأنه: ما الذي يمكن تحقيقه أو إنجازه من خلال هذه الفكرة؟ وبناءً على الإجابة، يتم تحديد معناها وقيمتها.

فهو يشجعنا على التفكير بشكل نقدي وعملي، وعلى تقييم الأفكار بناءً على نتائجها. فالتفكير الإنساني وفقًا لبيرس يجب أن يتبع نفس المبادئ التي تعمل بها الطبيعة، كما هو الحال في عقول العلماء الذين يقومون بتجاربهم في المختبرات. والمعرفة، كائنة ما

(١) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ٩٩.

(٢) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية، صـــ ٢٠٧.

كانت، لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت لها نتائج عملية يمكن لكل إنسان أن يشاهدها[١].

فالمعرفة، بغض النظر عن طبيعتها، لا يمكن اعتبارها معرفة حقيقية إلا إذا أثمرت عن نتائج عملية ملموسة يمكن ملاحظتها بوضوح.

كما تُعد هذه المقولة لبيرس من أبرز المبادئ الأساسية للفلسفة البراجماتية، حيث تقدم رؤية نقدية وعملية للمعرفة، وتؤكد على أهمية التكامل بين النظرية والتطبيق.

ويرى بيرس أنه لا يلزم للفكرة أن تؤدي بالضرورة إلى تحقيق حسي مباشر، وإنما يكفي أن تعطي لسلوكنا معنى؛ ويكمل بيرس نظريته بقوله: إن كل فكرة إنما تخلق إمكانًا لسلوك منظم ذي صلة بما تعبر عنه تلك الفكرة.. ومن ثم يمكن تفسير كل فكرة في النهاية على أنها عادة، وهذه العادات بوصفها تفسيرات لأفكارنا هي المرشدات إلى العمل[٢].

فيشير بيرس إلى أن كل فكرة تمتلك القدرة على تشكيل سلوك منظم يعكس مضمونها. وبالتالي، يمكن النظر إلى الأفكار كعادات تُسهم في تنظيم أفعالنا وتوجيهنا نحو تحقيق أهدافنا.

وتقدم هذه المقولة رؤية متكاملة لفكرة بيرس حول العلاقة بين الفكرة والسلوك. فهي تتجاوز مجرد النظر إلى الفكرة كأداة عملية، بل تراها قوة دافعة تشكل هويتنا وتوجه سلوكنا. هذه الرؤية تحمل آثارًا عميقة على فهمنا للطبيعة البشرية والمعرفة والعقل.

كما يرى بيرس أن المعنى الحقيقي لأي عبارة يكمن في التجربة الحسية المرتبطة بها. بمعنى آخر، عندما نستخدم كلمة ما، فإننا نشير إلى مجموعة من الخبرات الحسية التي نتوقع حدوثها عند التعامل مع الشيء الذي تشير إليه تلك الكلمة.

---

(١) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ٩٩.

(٢) المصدر نفسه، صـــ ٩٩.



فبيرس يربط المعنى ارتباطًا وثيقًا بالتجربة الحسية والتطبيق العملي، وتكون العبارة ذات معنى إذا كانت ألفاظها دالة على خبرة حسية يمكن الرجوع إليها في عالم التجربة. ولا تمتلك أي لفظة معنى سوى مجموعة تلك الخبرات الحسية المتوقع حدوثها. فمثلًا، إذا قلت عن شيء إنه «صلب»، فما معنى الصلابة؟ معناها خبرات نختبرها عند استخدام ذلك الشيء في حياتنا العملية، فنراه يخدش غيره ولا ينخدش، ونراه يكسر غيره ولا ينكسر، وهكذا[(١)].

فيعتمد مذهب بيرس البراجماتي على أساس منطقي لتحديد معنى العبارات، حيث تعتبر العبارة ذات معنى إذا أشارت ألفاظها إلى خبرة حسية قابلة للتجربة في الواقع.

ويفرّق «بيرس» بين المشكلات الحقيقية التي تحتمل الحل، إن لم يكن الآن، فقد يكون ذلك مستقبلًا، والمهم في ذلك أن يكون الحل ممكنًا؛ وبين المشكلات الزائفة وهي ما يستحيل حلها لأنها تحتوي على ألفاظ أو عبارات خالية من المعنى، أي تلك التي لا ترسم سلوكًا معينًا، أو بمعنى آخر لا يكون موضوعها مما يدخل في حدود الخبرة البشرية فعلًا وإمكانًا. وهو هنا شبيه بالمناطقة الوضعيين ويعترف بيرس بقوله: (إن البرجماتية بهذا المعنى نوع من الوضعية بمعناها الواسع الشامل)[(٢)].

فيُعدّ تمييز بيرس بين المشكلات الحقيقية والزائفة أداة فعّالة لتحليل الأفكار وتقييمها. يساعد هذا التمييز على التركيز على القضايا القابلة للحل، مع تجنّب الانشغال بمناقشات عديمة الجدوى حول مسائل بلا مضمون حقيقي. ويعكس هذا التوجّه الجانب العملي المميّز للفلسفة البراجماتية، حيث يركّز البراجماتيون على اختبار الأفكار من خلال نتائجها العملية، ويرفضون ما لا يؤدي إلى نتائج ملموسة.

---

(١) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية، صـــ ٢٠٨.

(٢) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١٠٠.

واستنادًا إلى ذلك، يرى بيرس أن المعرفة الحقيقية لا تُكتسب إلا من خلال التجربة العملية التي تبرهن على صحتها أو خطأها. لذا، يجب أن تكون المعرفة يقينية وقائمة على أسس علمية وتجريبية واضحة.

وفي تقييم فلسفة بيرس، يمكن القول إنها تقدّم رؤية عملية موجّهة نحو النتائج لفهم الحياة. ومع ذلك، قد تواجه بعض الانتقادات، مثل الميل إلى إهمال المعايير الأخلاقية المطلقة والتركيز الشديد على النتائج العملية فقط. ورغم هذه الانتقادات، تظل فلسفة بيرس من التيارات الفلسفية المؤثرة التي تهدف إلى ربط الفكر بالواقع العملي.

تعقيب على فلسفة تشارلز ساندرز بيرس:

تُعد فلسفة تشارلز ساندرز بيرس من أكثر الاتجاهات الفكرية تأثيرًا في الفلسفة الحديثة، حيث تميزت بمنهجها العلمي والتجريبي، مما جعلها ركيزة أساسية للفكر البراجماتي. ومع ذلك، فإن فلسفته لم تكن بمنأى عن الانتقادات والإشكالات الفلسفية.

الإسهامات الفاعلة والإيجابية لفلسفة بيرس.

١. اعتمد بيرس على التجربة والملاحظة كأساس للمعرفة، مما جعل فلسفته أكثر ارتباطًا بالواقع وأقل استنادًا إلى الافتراضات الميتافيزيقية المجردة.

٢. قدم بيرس مفهومًا جديدًا للمعنى، حيث ربط دلالة الأفكار بنتائجها العملية، مما ساعد في تشكيل الفلسفة التحليلية واللغوية لاحقًا.

٣. أكد بيرس على أن الحقيقة ليست مطلقة بل تتطور مع الزمن من خلال التفاعل المستمر بين الفكر والتجربة، كما كان سباقًا في إدراك الطبيعة غير القطعية للمعرفة العلمية.

٤. سعى بيرس إلى إيجاد توازن بين الواقعية الأرسطية والمثالية الكانطية، حيث أكد أن الواقع مستقل عن الفكر، لكنه شدد في الوقت ذاته على أن معرفتنا به تتشكل من خلال التجربة والخبرة.

٥. دمج بيرس بين المنهج العقلي والتجريبي، مما منح فلسفته طابعًا متوازنًا يجمع بين التفكير المنطقي والملاحظة التجريبية.

٦. كان بيرس أول من صاغ القاعدة البراجماتية التي تحدد معنى أي فكرة بناءً على آثارها العملية، مما أثر لاحقًا على مجالات متعددة في الفلسفة والعلم.

الانتقادات الموجهة لفلسفة بيرس

١. التركيز المفرط على النتائج العملية، خاصة في القضايا الأخلاقية والميتافيزيقية التي لا تخضع لتقييم مباشر من خلال التجربة.

٢. إهمال القيم الأخلاقية المطلقة فقد ربط بيرس الحقيقة بنتائجها العملية، مما قد يؤدي إلى تجاهل المبادئ الأخلاقية الثابتة.

٣. عدم وضوح مفهوم الحقيقة فقد عرّف بيرس الحقيقة بأنها النتيجة النهائية للبحث العلمي، لكن هذا التعريف يجعل من الحقيقة مفهومًا متغيرًا وغير ثابت.

٤. تعقيد أسلوبه الفلسفي فرغم تأثيره العميق، لم تحظَ فلسفة بيرس بالانتشار الواسع الذي نالته أفكار جيمس وديوي، ويُعزى ذلك إلى أسلوبه المعقد في عرض أفكاره.

وبناء عليه:

تمثل فلسفة بيرس البراجماتية تطورًا مهمًا في الفكر الفلسفي الحديث، حيث قدم رؤية قائمة على المنهج العلمي وربط المعرفة بنتائجها العملية. ومع ذلك، لم تخلُ فلسفته من النقد، خاصة فيما يتعلق بتركيزها على البعد العملي وإغفالها بعض الجوانب الأخلاقية والمعرفية المطلقة. ورغم هذه الانتقادات، لا تزال أفكاره ذات تأثير في الفلسفة المعاصرة.

ثانيًا: وليم جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠م):

يرجع الفضل في تأسيس الفلسفة البراجماتية إلى الفيلسوف الأمريكي "تشارلز ساندرز بيرس"، الذي وضع مبادئها الأساسية في أواخر القرن التاسع عشر. أما انتشارها وازدهارها، فقد تحقق بفضل "وليم جيمس"، الذي تبنى أفكار بيرس وطورها، وقدمها لجمهور أوسع. فتُركز البراجماتية على فكرة أن صحة الأفكار تُقاس بنتائجها العملية وقيمتها في تحقيق الأهداف.

وليم جيمس، الفيلسوف الأمريكي البارز، كان له دور كبير في تشكيل الفلسفة الأمريكية، حيث ربط بين المذهب الجديد والحياة الأمريكية ربطًا محكمًا، بحيث أصبح كلّ منهما علامة على الآخر ودليلًا إلى معرفته. ومع ذلك، فإن هذا القول لا يمنعنا من أن نلمس في حياة وليم جيمس وتربيته الأولى، ونظرته إلى الفلسفة نزعة كونية واضحة[١] .

كان جيمس مفكرًا مبدعًا ومرهف الحس أكثر من كونه متسق التفكير بشكل صارم. مر تطوره الفكري بثلاث مراحل رئيسية: البداية التي ركز فيها على علم النفس، والمرحلة الوسطى التي دافع خلالها عن البرجماتية، والأخيرة التي تناول فيها "الواحدية المحايدة". ويمكن اعتبار كل مرحلة امتدادًا منطقيًا لسابقتها، مما يعكس وحدة مزاجه الفكري ورؤيته الفلسفية[٢].

كما يُعدّ وليم جيمس من أهم الفلاسفة في تاريخ الفلسفة الأميركية، الذين تركوا بصمة واضحة في الفلسفة البراجماتية. يتميز بأسلوبه الذي يجمع بين الحدس والودية[٣]، مع

---

(١) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صــ ١٠٥.

(٢) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صــ ١٣١.

(٣) الحدس يشير إلى الفهم أو الإدراك المباشر للحقيقة دون الحاجة إلى استدلال منطقي معقد، بينما الودية تعكس الأسلوب السلس والقريب من القارئ، الذي يجعل الأفكار الفلسفية أكثر وضوحًا وسهولة في التلقي.

تركيزه على الإقناع بدلًا من الاعتماد الكامل على البرهنة المنطقية. كان يتمتع بروح تنبؤية وشاعرية تجعله مختلفًا عن غيره من المفكرين، مما جعله يُعتبر رمزًا للفكر الفلسفي الأميركي(١).

وعن أفكار الفيلسوف ويليم جيمس، كانت الترعة الواحدية وما يترتب عليها من نتائج أخلاقية وميتافيزيقية تثير قدرًا كبيرًا من النفور في عقل جيمس وشعوره على حد سواء. أما التنوع الهائل الذي يتبدى عليه الكون في مظاهره الكثيرة المتعددة، فهو أمر تبتهج له نفس جيمس وينشرح له صدره. ولم يكن يرحب باستبعاد أن جيمس كان يعارض من الوجهة العقلية كل تصور للواقع يجعله منفصلًا على أي نحو من الأنحاء عن التجربة الفعلية(٢).

أما عالم التعدد عند "وليم جيمس" فهو عالم مفتوح، وليس مسدودًا أو مغلقًا، كما أنه عالم الحرية، لا عالم الحتمية والضرورة، والعلاقات فيه علاقات خارجية، وليست علاقات باطنة تلزم عن تصورنا للكل والمطلق، كما تفعل الفلسفات المثالية(٣).

يمكن القول أن جيمس وجد في تنوع الواقع مصدرًا للبهجة والطمأنينة، رافضًا أي محاولة لاختزاله في أفكار مجردة بعيدة عن التجربة الملموسة. كما يتضح رفضه الشديد للفلسفات التي تفصل الواقع عن الخبرة الحقيقية، مما يؤكد ارتباطه القوي بالعالم الواقعي.

عمل جيمس على توسيع نطاق البراجماتية، ولم يرضَ بها كمنهج محكوم بقناعات نقدية ومنطقية، بل نقل مجالها إلى الأخلاق والدين. ومنه يمكن القول إنه قد وسّع من نطاق

---

(١) جيرار ديلودال: الفلسفة الأميركية، ترجمة :د. جورج كتورة د. إلهام الشعراني ،المنظمة العربية للترجمة، صــــــ ٢٢٧.

(٢) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، صـــ ١١٢.

استخدام البراجماتية هذا من جهة، كما أنه من جهة أخرى ضيّق من هذا الاستخدام. وقد أشار "ديوي" إلى هذا في قوله: "وقد واصل جيمس العمل الذي بدأه بيرس، ويمكن القول إلى حد ما إن جيمس قد ضيّق من مجال تطبيق براجماتية بيرس، لكنه في الوقت ذاته توسّع فيها"[١].

وذلك من خلال تحويلها من منهج قائم على النقد والمنطق إلى منهج أكثر ذاتية وأقل انفتاحًا على التحليل النقدي.

هذا التوسع يكمن في اتجاهين من خلال استشهاده بموقف "بيرس" الذي ينص على أن الاعتقاد قاعدة للعمل وأن وظيفة التفكير تكمن كخطوة في تكوين عادات السلوك، وكذلك من خلال رأيه بأن الاختبار النهائي لمعنى الصدق العقلي ما يمليه هذا الصدق من سلوك[٢].

فيمكن التأكيد أن إسهام جيمس في توسيع آفاق البراجماتية لعب دورًا محوريًا في تطور هذه الفلسفة، خاصة في جانبها العملي. وقد تأثر بشكل واضح بفكر بيرس، الذي يرى أن الأفكار ليست مجرد أفكار نظرية، بل هي وسائل توجه تصرفاتنا.

على أن الفكرة الرئيسية في فلسفة وليم جيمس، هي نفسها الفكرة الرئيسية عند أنصار الفلسفة البراجماتية، ألا وهي الفكرة الخاصة بتحديد مفهوم (المعنى). فما الذي يجعل عبارة ذات (معنى) على الإطلاق؟ جواب البراجماتيين جميعًا هو أن ما يجعل للعبارة (معنى) كونها ذات نتائج عملية تترتب على تنفيذها[٣].

(١) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، صـــ ٣٢.

(٣) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية، صـــ ٢١٣.

ومن البراجماتيين – مثل بيرس – من يكتفي بنظرية المعنى وحدها، ولا شأن له بصدق العبارة ذات المعنى بعد ذلك أو عدم صدقها. أما وليم جيمس، فيهتم أيضًا بصدق الكلام: متى يكون وكيف يكون. فيقول إن العبارة تكون صادقة (لا مجرد كونها ذات معنى مفهوم) إذا تصرفت على أساسها و لم تواجه أي عقبات تعيق تحقيق غايتها[١].

فالبراجماتية تقدم نفسها كمنهج عملي لفهم الأفكار وتوضيحها، وليس كفلسفة شاملة. وهي تركز على العلاقة الجوهرية بين المعنى والفعل، حيث يمكن فهم طبيعة المعنى من خلال الرجوع إلى الفعل فقط. هذا التناول يجعل البراجماتية متميزة تاريخيًا وفريدة في مقاربتها لمشكلة المعنى، التي طالما كانت محورًا للنقاش في الفلسفات التقليدية سواء في الشرق أو الغرب[٢].

والقيمة عند وليم جيمس تظهر في الغايات والمطالب التي ينشدها البشر. ولا تعدو مهمة الأخلاق أن تقوم في اكتشاف البدائل التي يمكن أن تشبع المطالب المتضمنة في موقف ما، على نحو يتسم بأعظم تناغم ممكن. وهكذا لا يكون الخير مطلقًا، كما أن الحقيقة ليست مطلقة[٣].

فيتبين انتقاد البراجماتية للمفاهيم المجردة غير القابلة للتطبيق، وتؤكد أن القيمة الحقيقية لأي فكرة تكمن في إمكانية ترجمتها إلى أفعال عملية.

وفي تفسيره لمعنى (البرجماتية) حدد جيمس مجالها بأنه يشمل منهجًا أولًا، ونظرية في الحق أو الصدق ثانيًا. أما المنهج فهو إعادة صياغة للمبدأ الذي وضعه بيرس في بحثه: كيف

---

(١) المصدر نفسه، صـ ٢١٥.

(٢) تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة: دكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة– اسكندرية ١٩٩٦م، صـ ٢٩.

(٣) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـ ١١١.

نجعل أفكارنا واضحة، الذي ظهر في السبعينات من القرن الماضي، وقد ذكرناه في حديثنا عن بيرس، ولا يكاد يضيف إليه جيمس شيئًا يُذكر، اللهم إلا تشبيهه للخبرة بأنها القيمة الفورية لما نصفه بأنه حق، فالعبارات الصادقة أشبه بالسلعة المطروحة في السوق، قيمتها ليست في ذاتها، بل فيما يُدفع من ثمن[١].

فتُؤكد البراجماتية الجيمسية أن المعنى الحقيقي لأي فكرة يتحدد من خلال نتائجها العملية، حيث تُعتبر الفكرة وسيلة عملية للتفاعل مع الواقع بدلًا من كونها مجرد تصور نظري.

ولقد قيل إن ذرائعية جيمس لم تكن إلا صورة من صور الشكية، وإنه كان يحط الحقيقة وينيطها بالمنفعة المادية، وأنه كان لا ينصح ولا يشجع على البحث العلمي المتجرد. ومثل هذا التأويل سيفاجئ بقوة كل من سعد بمعرفة الرجل. فما من أحد أحب الحقيقة حبًا أحر من حبه. وما من أحد بحث عنها بمثل هواه[٢] .

فيتضح أن النص يقدم صورة لجيمس كشخصية متأثرة بالشك والمادية ومعارضة للبحث العلمي الجاد، وهذا يتعارض مع الواقع الذي يظهر جيمس فيه كشخص شغوف بالحقيقة وباحث مستمر عنها. كانت فلسفته البراجماتية تهدف إلى إيجاد منهج عملي للوصول إلى المعرفة بدلًا من مجرد التشكيك فيها.

ويفسر جيمس تاريخ الفلسفة بأنه تصارع بين الأمزجة البشرية إلى حد كبير، ولا ينكر بالطبع أن الفلاسفة يسوقون الحجج والأدلة المنطقية لإثبات دعاواهم، لكنه يعتقد أن هذه الحجج والأدلة تقوم بدورًا ثانوي، ذلك أن مزاج الفيلسوف- أو فلنقل طبعه- يكون في واقع الأمر أقوى كثيرًا وأعمق جذورًا في نفس الفيلسوف وإرادته من مقدماته الموضوعية

(١) المصدر نفسه، صـ ١٠٩.

(٢) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، صـ٢٦٨.

الصارمة المحكمة[١] .

كما يُعرف جيمس عادةً في الأوساط الفلسفية بأنه المدافع عن البراجماتية باعتبارها نظرية عن الصدق، فقد صاغ بيرس مبدأه البراجماتي بوصفه إحدى القواعد أو المبادئ الكثيرة التي تتحكم في البحث حين يحدوه الذكاء؛ فالبراجماتية بالنسبة إليه قاعدة لبلوغ الوضوح في المعنى، إذ هي تتطلب من كل تصور أو فرض أن تكون وسيلة التعبير عن معناه هي الذكر المفصل الدقيق لأوجه الاختلاف في العالم المحسوس التي تنشأ عن كونه صادقًا[٢].

يوضح جيمس أن البراجماتية تسعى لفهم طبيعة الحقيقة وسبل الوصول إليها، خاصة في العلوم الطبيعية، حيث تُقاس صحة الفرضيات بإمكانية التحقق منها. وعلى الرغم من اتساق النظريات العلمية، فإنها تظل افتراضات حتى تُثبت بالبرهان الرياضي أو بالملاحظات الدقيقة. في هذا الإطار، يصبح التحقيق معيارًا أساسيًا للحقيقة، وتمضي البراجماتية إلى أبعد من ذلك بتركيزها على التجارب اللاحقة بدلًا من السابقة، مما يجعلها امتدادًا للتجريبية التقليدية مع اهتمام أوضح بالجوانب التطبيقية في الحياة اليومية[٣] .

وقد أدى هذا المنهج البراجماتي بجيمس إلى تبني فلسفته "التجريبية المتطرفة"، وأطلق عليها "جيمس" هذه التسمية ليميزها عن تجريبية "لوك" و"هيوم"، ومناط التمييز عنده هو مشكلة العلاقات. وهنا يختلف "جيمس" عن التجريبيين العاديين بقوله إن هذه العلاقة تقع في الخبرة الحسية المباشرة شأنها شأن سائر الأشياء الأخرى، ولهذا وصف جيمس تجريبيته بالمتطرفة [٤].

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ١٠٨.

(٢) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صـــ ١٣٢.

(٣) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، صـــ٨٩.

(٤) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١٠٩.



ويتناول جيمس مسألة المعرفة ويطرح فكرة وجود حقيقة أو صدق يمكن لعقولنا الوصول إليها وإدراكها. في المقابل، يختلف الشكّاك عن هذا التصور، حيث لا يفترض وجود حقيقة ثابتة يمكن إدراكها. عند هذا المفترق، نختلف عن الشكّاك في اعتقادنا بوجود الحقيقة وقدرة عقولنا على إدراكها. يمكن للإيمان بوجود الصدق وإمكانية الوصول إليه أن يتم من خلال طريقتين: إما عبر المذهب التجريبي أو المذهب المطلق.

ويكمن الفرق بين الطريقتين في أن أصحاب المذهب المطلق يرون أنه يمكننا الوصول إلى الحقيقة والصدق، بالإضافة إلى معرفتنا بيقين أننا قد وصلنا إليهما. أما أصحاب المذهب التجريبي، فيؤمنون بأنه يمكننا إدراك الحقيقة، لكنهم لا يستطيعون التأكد بشكل قطعي من متى نكون قد وصلنا إليها. وبالتالي، تُفرِّق المعرفة بين إدراك شيء ومعرفة أنك قد أدركته، وهو ما يثبته أصحاب المذهب التجريبي، حيث يرون أن الأول ممكن دون الثاني [١] .

ومن خصائص نظرية جيمس البراجماتية في المعرفة أيضًا خاصية تتصل باستخدامه لعبارة مدرك عقلي؛ فكثير من الفلاسفة يذهبون إلى أن المدرك العقلي لا يمكن أن يكون شيئًا أقل من قضية كاملة، وفي هذا يخالفهم جيمس، فهو يناقش كثيرًا وفي شيء من الإسهاب التمييز بين المدركات العقلية والمدركات الحسية، ويعرف الحياة العقلية مرارًا على أنها استبدال مستمر بالمدركات الحسية مدركات عقلية، غير أنه يعرف دائمًا المدرك العقلي في نهاية التحليل بأنه حسي يعمل بطريقة معينة، وهذا يتفق تمام الاتفاق مع ميله الأدائي. والمدرك العقلي عند جيمس إما أن يكون كلمة وهي مدرك، وإما صورة ذهنية وهي مدرك حسي تعمل في التجربة الإنسانية بطريقة تنبؤية[٢].

---

(١) وليم جيمس: العقل والدين، ترجمة الدكتور محمود حب الله، دار احياء الكتب العربية، صـــ ١٥.

(٢) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صـــ ١٣٣.

وقد كتب ديوي إلى «جيمس» في سنة ١٩٠٩م مشيرًا إلى أن نظريته الأداتية في المعرفة تبدو متناقضة إذا لم تكن هناك وجودات مستقلة تصفها الأفكار، والتي من خلالها تؤدي هذه الأفكار وظيفتها[١].

كما كان جيمس في الوقت نفسه استبطانيًا[٢] لا يلين، والفصول التي كتبها عن "تيار الفكر" و"وعي الذات" لا يعلو عليها شيء مما كتب عن علم النفس الاستبطاني. وكان يعتقد أن المجهود التجريبي الصارم لتحديد كيفية قيام العقل بوظائفه في التجربة لا يمكن أن يتم إلا بالنظر إلى الباطن. وقليلة حقًا هي تلك الأشياء التي تجعل من جيمس الإنسان أقرب إلى قلوبنا مما تفعله في هذا السبيل طاقته الخصبة بوصفه استبطانيًا[٣] .

وتتمحور فلسفة وليم جيمس حول التوفيق بين إخلاصه للعلم وانجذابه إلى الإيمان الديني. وهذه الحقيقة نلمسها في كتابيه الأولين اللذين أسهم بهما في تأسيس علم النفس الحديث، في حين أن الكتابين اللذين ألّفهما بعد ذلك كانا عن الاعتقاد الديني. ويمكن أن نقول إن كتاباته الباقية التي تلت ذلك كانت مكرّسة لبحثه عن المنظور الفلسفي الذي يستطيع أن يجمع فيه بين هاتين البؤرتين من التجربة، وإن كنا نلمح هذا التوتر من خلال مؤلفاته الأولى[٤].

وكان جيمس يصف نفسه بأنه "واقعي"؛ بيد أنه لم يكن حريصًا على استخدام الألفاظ استخدامًا فنيًا، فهو بهذا الوصف لنفسه يعني أشياء كثيرة؛ فهو يعني بذلك أحيانًا أنه

---

(١) هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ٣٨٤.

(٢) يعرف علماء النفس الاستبطان بأنه منهج يقوم على الملاحظة الدقيقة التي يجريها الفرد لإدراكاته، ومشاعره، وخبراته، وانفعالاته بطريقة مقصودة وواضحة، بهدف وصف هذه الحالات وتوثيقها وتحليلها .انظر عبد الفتاح محمد دويدار: مناهج البحث في علم النفس. دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، الإسكندرية، صـ٥١.

(٣) فؤاد كامل: الموسوعة الفلسفية المختصرة، صـ ١٣١.

(٤) المصدر نفسه، صـ ١٠١.

من ذوي العقول الناشفة التي تتسم بالجفاف والصرامة في التفكير، وأحيانًا أخرى أنه عملي، وأحيانًا ثالثة أنه في انسجام مع الذوق الفطري. ومهما يكن من أمر، فقد دافع في فترة متأخرة من فترات حياته، وهي فترة كثيرًا ما تعرف بأنها الفترة التي كتب فيها للخواص، عن ضرب فني من ضروب تأويل المذهب الواقعي في الفلسفة تحت اسم "الواحدية المحايدة"، مما يعكس تطورًا في تفكيره الفلسفي(١) .

وكما يؤمن «جيمس» بحرية الإرادة، فإنه يؤمن أيضًا بـــ«إرادة الاعتقاد»، ذلك أن عامل الاختيار هو الذي يحدد اعتقادنا إلى حد كبير. والطابع الذي يأخذه العالم يتوقف على إيماننا نحن البشر، بل نستطيع أن نقول إن ما هو كائن يتوقف إلى حد غير قليل على ما ينبغي أن يكون. وما دامت الإرادة هي التي تخلق العالم الذي نعيش فيه إلى حد ما، فإن علينا أن نقول: «إن العالم خير، لأنه ليس إلا ما نجعل منه، وإننا لجاعلون منه شيئًا خيرًا»(٢).

ويذهب جيمس فيما يختص بطبيعة الحقائق الضرورية والدور الذي تقوم به الخبرة إلى أن الإدراك الحسي والعقلي للعالم المحسوس ليس مجرد تجمع للخبرات خاصة، وإنما هو عمل بيولوجي أصيل، وأن العدد والزمان والمكان والتشابه وغير ذلك من المقولات ظهرت نتيجة عدم استقرار المخ ولا يمكن أن تُطبع على العقل بتأثير خارجي، وإنما تجمعت هذه المقولات وامتد أثرها لما لها من قيمة عند تطبيقها على الحالات المحسوسة والأشياء الموجودة في التجربة. وفي هذا يكمن الأصل للبرجماتية(٣) .

بالتالي، يشير إلى الأصل البرجماتي الذي يركز على الفائدة العملية للتصورات والعلاقات في التجربة الإنسانية.

---

(١) المصدر نفسه، صــ ١٣٣.

(٢) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١١٤.

(٣) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، صـــ٩٢.

فالمعروف في التقليد الفلسفي،، أن الحقيقة حين توجد لا تتغير. فهو يرى أن الحقيقة والعقيدة شيء واحد في النهاية؛ الحقيقة عقيدة فعالة، منها تتأكد النتائج العملية. فالحقيقة ليست مجرد خاصية ثابتة، بل هي نتاج عملية ديناميكية مستمرة. ويعبّر مؤسّس البراجماتية عن هذا المفهوم بوضوح، إذ يقول: "ليست حقيقة الفكرة خصيصةً راكدة تتلاءم معها. الحقيقة تصل إلى فكرة، والأحداث هي التي تجعلها حقيقية، وحقيقتها في الواقع هي هذا الحدث، هذه السيرورة، سيرورة التحقق من ذاتها من تحققها[١] .

وقد توسع كل من وليم جيمس وجون ديوي في أفكار بيرس، مضيفين آفاقًا جديدة إلى الفلسفة البراجماتية. فذهب جيمس إلى أن الحقيقة هي ما يقودنا إلى النجاح في الحياة، وأن المعتقدات الصحيحة هي التي تحقق أهدافنا الفعلية. بالنسبة له، الحق لا ينفصل عن الفعل أو السلوك؛ فنحن نفكر لنعيش، ولا توجد حقيقة كطاقة مستقلة[٢]

على عكس بيرس، لدرجة أن البعض قد يعتبرهما غير منتميين تمامًا لنفس الحركة الفلسفية، وهي البراجماتية. كما يُقتبس عن رالف بارتون بيري قوله إن البراجماتية قد تكون نتيجة سوء فهم جيمس لأفكار بيرس[٣].

وبوجه عام، فقد نظر جيمس إلى تفسير القضية البراجماتية التي طرحها بيرس بأسلوب يتماشى مع رؤيته الشخصية للفلسفة، مما يعكس تأويله الخاص للمفاهيم الفلسفية وفقًا لمنهجه الفكري[٤].

---

(١) روجيه – بول دروا: أساطير الفكر، ترجمه وقدم له د. علي نجيب إبراهيم، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، صـ ٤٥.

(٢) الدكتور يحى هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، ١٩٩٣م، صـ١٣٥.

(٣) تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، صـ٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ، صـ٤٦.

ويفرق وليم جيمس بين الفلسفة العقلية والفلسفة التجريبية في رؤيتهما للحقيقة والابتكار. فالفلسفة العقلية تسعى دائمًا إلى نظرة محيطة بجميع الأشياء، حيث تعتمد على نظام يهدف إلى تنظيم الأفكار والتحكم فيها، أما المذهب التجريبي فيرى أن الحقيقة الواقعية لا يمكن أن تكون محددة على هذا الوضع في سياج تصوري. فهي تفيض وتتجاوز الحد، وتتحول وقد تنقلب إلى ابتكارات، وعلى ذلك فالفلسفة التجريبية تنبذ ادعاء نظرة شاملة، وهي تقتصد في أخذ التجربة الشخصية الضيقة بالتصورات، إذ تراها مفيدة ولكن لا تجعل لها السيادة(١) .

ويوضح جيمس كيف تكون الحقيقة في الفكر البراجماتي وكيف يتم الوصول إليها، فما الذي يتم الوصول إليه غير معنى الحقيقة؟ فالحقيقة ليست مجرد مفهوم بسيط، بل هي مرتبطة بكيفية الوصول إليها وتجربتها في الواقع. والوصول إلى الحقيقة يتطلب تجربة عملية وتفاعلًا مع الواقع، حيث يصبح الاعتقاد صحيحًا إذا أثبت فائدته أو رضاه في الحياة العملية. كما يتحدى جيمس أن يبين كل من يعارض البراجماتية استحالة هذا الربط بشكل تفصيلي(٢).

فيُنظر إلى مقولة وليم جيمس على أنها دعوة لاعتماد منهج أكثر واقعية في التعامل مع مفهوم الحقيقة والواقع. فبدلًا من السعي وراء تعريف مطلق وثابت للحقيقة، يشجع جيمس على التركيز على العملية التي تقود إلى اكتساب المعرفة، وعلى النتائج العملية التي تترتب على هذه المعرفة(٣).

(١) وليم چيمس: بعض مشكلات الفلسفة ،ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي مراجعة: الدكتور زكي نجيب محمود المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، صـــ ٩٠.

(٢) وليم جيمس: معنى الحقيقة، ترجمة وتقديم: أحمد الأنصاري، مراجعة :حسن حنفي، المركز القومي للترجمة،- الطبعة الأولى ٢٠٠٨م، صـــ ١٣٨.

(٣) د. زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، صـــ ٢٦.

وتتمحور فلسفة وليم جيمس حول التعددية والتغيير باعتبارهما جوهر الواقع، حيث يرى أن الحقيقة ليست ثابتة أو مطلقة، بل متغيرة ومتطورة باستمرار. كما يؤكد أن العالم ليس كيانًا مغلقًا، بل منظومة ديناميكية من كيانات متعددة تتفاعل وتتغير بمرور الزمن.

وتُعد فلسفته تجريبية متطرفة تعارض النزعات المثالية، إذ يرفض محاولة إخضاع الكون لمبدأ عقلي واحد يفسر جميع الموجودات. فبالنسبة له، العالم ليس وحدة متكاملة يمكن فهمها عبر مذهب ميتافيزيقي واحد، بل هو متغير ومتعدد، ولا يمكن تفسيره من خلال إطار فكري واحد يشمل كل التجارب والظواهر(١).

فيركز جيمس على مفهوم التغيير والتحول والتنوع، حيث يعرض رؤية للعالم لا تقوم على وحدة مطلقة أو مبدأ شامل واحد. بدلًا من ذلك، يرى أن الكون متعدد الأبعاد ولا يمكن فهمه بشكل كامل من خلال مذهب واحد فقط، بل يتطلب تفسيرات متنوعة تشمل مختلف أنواع التجارب والظواهر.

كما يرفض ويليم جيمس فكرة "الكل المجرد" ويؤكد على أهمية أن يعيد للظواهر حقها المسلوب، فنراه يقرر أن ما (يبدو) أو ما (يظهر) ليس مجرد وهم أو خداع، بل هو حقيقة واقعة، ويستند في ذلك إلى مبدأ التعدد، ذلك لأنه يرى أن التجربة نفسها تظهر لنا الأشياء بمظهر الكثرة والتعدد. فنحن نرى الأشياء تتعاقب بعضها وراء البعض الآخر، وليس هناك ما يبرر عدم الأخذ بظاهر الأشياء(٢) .

ومن الظلم الادعاء بأن البراجماتية قد أهملت المسائل النظرية تمامًا، إذ لم تنكر أهميتها، لكنها ركزت على ربط الأفكار بنتائجها العملية. فوفقًا للبراجماتية، لا يُحدد معنى الأفكار إلا من خلال الفروق العملية التي تقدمها، كما أن حقيقة الاعتقاد تتجلى في قيمته العملية.

---

(١) المصدر نفسه، صـــ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، صـــ٢٨

ونتيجة لذلك، تُفهم الحقيقة بناءً على تأثيرها في أفعالنا أو الشعور بالرضا الذي تولده، دون أن تكون مرتبطة بواقع مستقل أو بحقائق مطلقة أخرى[١].

وأيًا كان ما يقوله المرء عن نظريات وليم جيمس، وسواء استجبنا لها بالمدح أو بالقدح، فهناك شيء واحد يكاد يجمع الناس على الاعتراف به، وهو أنه من المحال أن تقرأه دون أن تحبه وتعجب به؛ وحتى إذا أحسست أنه مخطئ كل الخطأ، فأنت مجبر على احترامه، فهو كان يتمتع بالأمانة العقلية التي لا تعرف المساومة[٢] .

ويُعتبر ويليم جيمس أحد أبرز الفلاسفة الذين ساهموا في تطوير الفلسفة البراجماتية، وأن أكبر تقدم حققه "جيمس" للبراجماتية كما يذكر ذلك الفيلسوف "جون ديوي" الذي سيعترف بفضل "جيمس" عليه، حيث قدم مفهومًا مبتكرًا حول الاعتقاد وحرية الإنسان في الإيمان بما يراه صائبًا. وقد أثّر هذا المفهوم بشكل كبير على فلسفة "جون ديوي"، فتجريبية "جيمس" ستكون رافدًا من الروافد التي شكلت فلسفة "ديوي" "الوسيلية" وستبدو تأثيراتها جلية على تطور منحى "ديوي" الفكري[٣].

يتجلى مما سبق أن ويليم جيمس لعب دورًا محوريًا في تشكيل الفلسفة البراجماتية، إلى جانب تأثيره على فكر جون ديوي. فقد أسهم جيمس، خاصة في مجالي الاعتقاد وحرية الإيمان، بإضافات لم تكن مجرد امتداد للفكر البراجماتي، بل كانت أساسًا قامت عليه تجريبية ديوي ووسائليته.

---

(١) وليم جيمس: معنى الحقيقة، صـــ ١٤١.

(٢) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١١٤.

(٣) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٣.

تعقيب على فكر وليم جيمس:

يُعتبر وليم جيمس أحد أبرز رواد الفلسفة البراجماتية، حيث أسهم بجهوده في توسيع آفاقها ونقلها من سياقها المنطقي والنقدي إلى ميادين أوسع، مثل الأخلاق والدين. وتميّز بأسلوب فلسفي يجمع بين الحدس والتجربة العملية، ما جعله مختلفًا عن الفلاسفة التقليديين.

الإيجابيات:

١. توسيع نطاق البراجماتية: لم يقتصر جيمس على المفهوم التقليدي للبراجماتية كما طرحه بيرس، بل وظّفها في مجالات الأخلاق والدين، مما جعلها أكثر التصاقًا بالتجربة الإنسانية والحياة اليومية.

٢. التأكيد على التجربة والنتائج العملية: شدد جيمس على أن قيمة الأفكار تُقاس بمدى نجاحها في التطبيق العملي، ما جعل الفلسفة وسيلة لفهم الواقع وليس مجرد تأمل نظري.

٣. الاهتمام بالفرد والتجربة الذاتية: تناول جيمس البعد النفسي والوجداني للإنسان، معتبرًا أن الإيمان، حتى لو لم يكن مستندًا إلى أدلة منطقية صارمة، قد يكون ضروريًا لوجود الإنسان وحياته.

٤. اعتبار الحقيقة عملية ديناميكية: لم ينظر جيمس إلى الحقيقة باعتبارها مطلقة أو ثابتة، بل رأى أنها تتشكل من خلال التجربة المستمرة، ما جعلها أكثر توافقًا مع واقع الحياة المتغير.

الانتقادات:

١. إضعاف مفهوم الحقيقة المطلقة: يرى بعض النقاد أن جيمس دفع البراجماتية إلى حد جعل مفهوم الحقيقة نسبيًا، بحيث تصبح أي فكرة صحيحة إذا أثبتت منفعتها، بغض النظر عن مدى توافقها مع الواقع الموضوعي.

٢. جعل الفلسفة ذاتية أكثر من كونها نقدية: في حين ركّز بيرس على البراجماتية بوصفها منهجًا منطقيًا لتحليل المعنى، صبغها جيمس بطابع شخصي وذاتي، ما أثار انتقادات من فلاسفة مثل ديوي، الذي رأى أن جيمس أضعف قدرتها على التحليل النقدي.

٣. قلة الدقة المنهجية: لم يُعر جيمس اهتمامًا كبيرًا للدقة المنهجية مقارنةً ببيرس، مما جعل فلسفته تبدو أقل انضباطًا من الناحية المنطقية.

٤. إدخال البعد الديني في الفلسفة البراجماتية: رغم أن هذا قد يُعد نقطة قوة، إلا أن بعض الفلاسفة رأوا أن ربط جيمس للفلسفة بالمعتقدات الدينية أضعف قدرتها على تقديم تحليل عقلاني متماسك.

يمكن القول إن وليم جيمس في جعل البراجماتية أكثر ارتباطًا بالحياة العملية، لكنه في الوقت نفسه أثار جدلًا حول قضايا مثل النسبية والحقيقة. وبينما يعتبره البعض فيلسوفًا براجماتيًا بامتياز، يرى آخرون أنه تجاوز الحدود النقدية الصارمة، مما أدى إلى الاختلاف بشأن فلسفته.

ثالثًا: جون ديوي (١٨٥٩ – ١٩٥٢م):

تعد فلسفة جون ديوي البرجماتية من أبرز التيارات الفكرية التي ظهرت في القرن العشرين. وهي فلسفة تقوم على اعتبار التجربة والعمل كعنصرين أساسيين لفهم الحقيقة وتطوير المعرفة.

وخلال حياة ديوي، تطورت الحياة في الولايات المتحدة الأمريكية من مجتمع زراعي بسيط إلى أمة صناعية متحضرة ومعقدة. وقد انعكست هذه التحولات على أفكار ديوي التربوية بشكل موسع، استجابةً للتطور السريع في فترة التغيير الحضاري[(١)].

(١) كفاء يحيى صالد العسكري: الغزالي وجون ديوي نظرتهما للطبيعة الانسانية، اصدارات شبكة العلوم النفسية العربية ،العدد٢، صـــ ٣٦.

وفي عام ولادته، نشر دارون دراسته عن "أصل الأنواع" (Origin of Species)، الذي يُعتبر نقطة تحول بين عصرين ثقافيين، عصر ثقافي قبله يتصور العالم سكونيًا ثابتًا، وعصر ثقافي بعده يمتد حتى يومنا الراهن يجعل حقيقة العالم تغيرًا وتطورًا وحركة. وأحسب أنه لو وضحت لنا هذه الحقيقة الكبرى، فقد وضحت بالتالي المبادئ الأساسية التي تقوم عليها كل ثقافتنا القائمة، والتي انعكست بشكل واضح في فلسفة جون ديوي(١).

وفي الواقع، كان "ديوي" في بداية حياته الفكرية متأثرًا بالهيجلية، وهي فلسفة تركت بصمة واضحة على تفكيره حتى بعد انتقاله إلى البراجماتية. وقد جاء هذا التحول بفعل التصور البيولوجي للنفس الذي قال به "جيمس"، بالإضافة إلى تأثره بفكرة التطور الداروينية التي لعبت دورًا مهمًا في تشكيل رؤيته الفلسفية(٢).

ويُعتبر جون ديوي ثالث بناة المذهب البرجماتي في أمريكا، بعد تشارلز بيرس ووليم جيمس، وهو أوسعهم شهرة، وأعمقهم نفوذًا، وأكثرهم تعبيرًا عن الروح التي تسري في القارة الجديدة. فقد أتيحت له من العوامل في نشأته وبيئته وتكوينه الشخصي ما جعله مهيئًا للتعبير عن هذه الروح أصدق تعبير. ومع أنه كان امتدادًا لسلفيه العظيمين، إلا أنه أراد أن يتميز عنهما بأن أطلق على فلسفته اسمًا جديدًا هو مذهب (الأداتية (Instrumentalism)، كما أنه حاول تطبيق مبادئ هذه الفلسفة في مجالات لم تخطر لهما على بال. ولهذا السبب لم يقتصر نفوذه على أوساط الفلاسفة المحترفين، بل امتد إلى التربية وعلم الجمال، والنظرية السياسية(٣).

---

(١) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية، صـــ ٢١٨.

(٢) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٦.

(٣) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١١٥.



يعتمد فكر ديوي على أسس مستمدة من التقاليد الأمريكية الشائعة مثل الذرائعية والتجريبية والحس السليم المناهض للخيال أو اللامعقول، وكان ديوي يؤمن بأهمية الذهنية والمنهج التجريبيين في الفكر والعمل. ومع ذلك، يبدو أنه لم يتأثر بالطهرانية التقليدية[١] التي كانت سائدة في منطقة نيو إنجلاند. ومن الجدير بالذكر أن البنية العقلية التي طورها ديوي استندت بشكل كبير إلى أفكار دارون ونظرياته التطورية.

فالعقل البشري، في نظر فيلسوفنا، هو أداة تطورت من خلال عملية التطور البيولوجي، لتسمح للجسم بالتكيف مع العالم الفيزيقي والبقاء على قيد الحياة؛ ويتعين بالتالي إخضاع فعالية العقل ووظيفته للتجريب والتقييم والتحويل[٢] .

فيتضح أن فعالية العقل ووظيفته هي التقييم المستمر والتجريب الدائم بهدف تحسين قدراته وتعزيز دوره في تلبية احتياجات الإنسان المتطورة.

كما كتب عن المشكلات العملية التي تواجه التعليم، وساهم في مناقشات أكاديمية أُثيرت حول الحرية، واشترك في المنظمات الخاصة بالحقوق والحريات المدنية. ومما هو

---

(١) البيوريتانية (Puritanism) ، المعروفة أيضًا بالتطهرية أو الطهرانية التقليدية، كانت حركة دينية نشأت في إنجلترا خلال القرن السادس عشر بهدف إصلاح الكنيسة الإنجليزية. في بداياتها، ركز البيوريتانيون على انتقاد الملابس الكنسية، وخاصة الأردية الاحتفالية المستخدمة في طقوس القربان المقدس(Eucharist) ، كما رفضوا بعض المظاهر الاحتفالية في العبادة. انقسم أتباع هذه الحركة إلى مجموعات؛ حيث تبنى بعضهم المشيخانية (Presbyterianism) وسعوا إلى تحويل الكنيسة الإنجليزية إلى هذا النظام، بينما قبل آخرون استمرار نظام الأساقفة وكتاب الصلاة الشائعة (الانغليكانية (Anglicanism مع إدخال بعض التعديلات عليهما. كان للبيوريتانيين دور بارز في تأسيس المستعمرات في أمريكا الشمالية، حيث تركوا تأثيرًا عميقًا على الدين والمجتمع في الولايات المتحدة. وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح "بيوريتاني" يُستخدم أحيانًا بشكل غير دقيق لوصف الأفكار الصارمة والمتشددة. انظر سهيل زكار: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، دار الكتاب العربي، الطبعة الاولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م جـ١،صـ٢١٧.

(٢) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، صـ٣١١.

معروف عن فلسفة "ديوي" أنها ذات دوافع وأغراض اجتماعية، بحيث سعت للمساهمة في حل مشكلات المجتمع الصناعي لتبرهن على مدى قدرة الفلسفة على أداء وظيفة إنسانية داخل البيئة الاجتماعية. وكان هذا هو المفهوم الذي حدده "ديوي" للفلسفة والذي ينبغي أن يُراعى فيه البُعدين الثقافي والاجتماعي(١).

وإذا كان هناك سمة عامة تميز فلسفة ديوي، فهي "النزعة التجريبية" التي تتخذ نقطة انطلاقها من (الخبرة العامة). وليس لدى الفيلسوف، فيما يرى ديوي، مقدرة خاصة يتميز بها عن باقي الناس، أو أسلوب خاص من أساليب المعرفة لا يتوافر لدى الرجل العادي، وإنما لا بد للفيلسوف من أن يواجه شتى مشكلاته ابتداءً من التجربة البشرية العادية. كما يعبر عن رفضه للتجريدات الميتافيزيقية والتركيبات اللفظية التي يراها غير عملية، مما يعكس تطرفه في تبني المنهج التجريبي.(٢).

والتجربة عند ديوي تُعبّر عن التفاعل الحر بين الأفراد والظروف المحيطة بهم، مع التركيز على الجوانب الإنسانية، وهذا التفاعل يُنمي ويُشيع الحاجة والرغبة، وذلك بتزايد معرفة الأشياء على ما هي عليه. فمعرفة الظروف كما هي عليه هي الأساس الوحيد المتين للاتصال والمشاركة، وأي اتصال آخر يعني خضوع بعض الأشخاص للرأي الشخصي لأشخاص آخرين، مما يعكس نوعًا من الخضوع وليس التفاعل الحقيقي (٣) .

كما ذهب ديوي إلى القول بأن الديمقراطية والتربية لفظان مترادفان من الوجهة العملية في فكر (ديوي)، حيث يرى أن كلاهما مرتبطان بمبادئ التجربة الإنسانية. فالديمقراطية، وفقًا لديوي، تعبر عن الإيمان بقدرة التجربة الإنسانية على تحديد الأهداف

---

(١) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٥.

(٢) د. زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، صـــ٦٢.

(٣) هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة: الدكتور محمد فتحى الشيطى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م، صـــ ٤١١.

والوسائل التي تساهم في تطوير تجارب أعمق وأغنى. كما يؤكد أن العمل التجريبي أهم من النتائج النهائية، لأن هذه النتائج تكتسب قيمتها فقط عندما تُستخدم لتعزيز وتنظيم العملية الجارية. وبالتالي، الإيمان بالديمقراطية يعكس الإيمان بالتجربة والتربية كعملية مستمرة للتعلم والنمو[١] .

لقد طور "ديوي" فلسفته الخاصة التي تتشارك في جذورها مع براجماتية "بيرس" و"جيمس"، ولكنها تختلف عنها في الفروع، وهي ما اصطلح عليه بـــ "الوسيلية" أو "الأداتية" أو "الذرائعية"، وسميت هكذا لأنها تعتبر الأفكار وسائل وأدوات وذرائع يتكيف بها الإنسان مع محيطه، وهي خطط ومشروعات للعمل، يقاس مدى نجاحها وفاعليتها بمقدار ما تؤدي إليه من تحقيق أغراض الكائن البشري في التكيف والتوازن والملاءمة مع بيئته الاجتماعية والمادية، وذلك باعتمادها عنصري الذكاء والخبرة في "إمكان إقامة علاقات أكثر فاعلية ونفعًا مع الأشياء في "المستقبل[٢].

تُعتبر فلسفة جون ديوي "الأداتية" من أبرز الفلسفات التي بُنيت على ثلاثة محاور رئيسية: الترابط العضوي، التطور، والتجريبية. أما المحور الأول، "الترابط العضوي"، تأثر فيه ديوي بدراسته لهيجل ونظريات هكسلي البيولوجية، مما جعله يؤمن بالتفاعل العضوي بين الأشياء ورفض الثنائية في الفلسفة مثل الفصل بين المادة والعقل أو بين الواقع والقيمة. أما المحور الثاني وهو التطور فقد تأثر فيه بداروين الذي لم يسلم أحد من تأثيره في ذلك العصر. ويتضح هذا التأثير في نظرياته التربوية والاجتماعية والسياسية على حد سواء. وأما المحور الأخير، وأعني به التجريبية، فقد كان تراثًا مشتركًا في الفلسفة الأنجلوسكسونية بوجه عام، وفي الفلسفة (البرجماتية) الأمريكية بوجه خاص، وإن أمكننا تسمية نزعــة ديــوي

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ٤١٠.

(٢) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٦.

"الأداتية" بأنها "تجريبية طبيعية" على وجه التحديد[١].

ولفهم الأداتية كما يراها جون ديوي، يجب التركيز على طبيعة التفكير وعلاقته بالخبرة الإنسانية يرى ديوي أن الفلسفات القديمة أخطأت عندما فصلت التفكير عن تيار الحياة اليومية، ونظرت إليه على أنه عملية ثابتة، فانتزعت التفكير من مجرى الحياة وانتزعت معه صفة جوهرية لكل كائن حي هي أنه يعيش في زمان، وسميت أوجه التفكير بأسماء كثيرة مثل التصور، والحكم، والاستدلال، والتأمل، ولكن هذه الأوجه إنما تدل على بحث، أو على نتيجة بحث، وأن البحث يشغل مترلة متوسطة في الخبرة[٢].

ومن الوجهة الفلسفية الدقيقة، تكمن الأهمية الرئيسية لعمل ديوي في نقده للتصور التقليدي للحقيقة. فالحقيقة ليست ثابتة أو نهائية كما يعتقد معظم الفلاسفة المحترفين، بل يراها ديوي كشيء متغير يعتمد على الأدوات والوسائل المستخدمة لتحقيق الأهداف. في نظرية الأداتية التي يطرحها، الحقيقة ليست مفهومًا كاملًا أو خالدًا، بل هي مرتبطة بالظروف والتجارب الإنسانية. يمكن اعتبار هذا التصور بمثابة تحدٍ للفكرة التقليدية التي تربط الحقيقة بأفكار الله أو تلك الأفكار التي نشاركها معه ككائنات عاقلة[٣].

كما قدم جون ديوي تصورًا برجماتيًا عُرف بمذهب الذرائع، متأثرًا بفلسفة دارون في التطور، حيث يرى أن حياة الإنسان هي سعي دائم للتكيف مع البيئة، وإخفاقه في ذلك يؤدي إلى الفناء. ويكمن مفتاح هذا التكيف في الأفكار، التي يعتبرها ديوي أدوات لتحقيق التوافق والتجربة السلوكية، لا مجرد مفاهيم نظرية. فالأحكام العقلية، وفقًا له، ليست مجرد

---

(١) فؤَاد كَامِل: أعلام الفكر الفلسفي المُعَاصِر، صـــ ١١٧.

(٢) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، صـــ١٠١.

(٣) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة العربية، ترجمة د. محد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٧م، جـــ٢، صـــ٤٧٨.

روابط منطقية، بل تعبيرات عن مواقف تجريبية. لذا، يشبه الفيلسوف البرجماتي القاضي، الذي يبني أحكامه على الوقائع التي يعاينها(١).

ويعرف جون ديوي الفلسفة بأنها رؤية تهدف إلى تحرير العقول من الأهواء وتخفيف حدة التوتر في الحياة الاجتماعية السائدة في عصره، ومعنى هذا أن ديوي يوسع مفهوم البيئة ليشمل كل ما يحيط بالإنسان من ظروف مادية ومعتقدات ومعايير وآراء أخلاقية، وكان واضحًا أنه أراد أن يؤسس الأخلاق على نوعين من الدراسات :الدراسات النفسية من ناحية، والدراسات الاجتماعية من ناحية ثانية .ويهدف كل منهما إلى فهم البيئة بطريقة ما، في محاولة لسد الفجوة بين العقل النظري والعقل العملي(٢) .

وإن الفكرة الأساسية في أخلاق ديوي هي فكرة التقدم في قدرة العقل، والطابع المميز لهذه النظرية هو إبرازها لقيمة النزعة الفردية، والتقدم، والمساواتية، وتعدد المصالح أو الأفضليات ودمجها في نظام مؤهل لتلبيتها على أفضل نحو. لقد دافع جون ديوي في أميركا عن فكرة أخلاق دينامية، قائمة على وجود فعل منفتح على أوسع الإمكانيات وعلى التغني بهذا الفعل(٣).

ويُعد جون ديوي من أبرز الفلاسفة الذين ركزوا على تحليل عملية الفكر وطبيعتها وأصولها، حيث تناول تطور الأفكار في عقل الإنسان من جذورها البيولوجية والاجتماعية الأولية وصولًا إلى أشكالها المعقدة.

فقد كان ديوي في عصرنا الحاضر من بين من أقاموا منطقًا جديدًا يصور طرائق البحث في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وهو المنطق الذي أطلق عليه اسمًا فنيًا هـــو

---

(١) الدكتور يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، صـــــ١٣٨.

(٢) الدكتور يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، صـــــ١٣٩

(٣) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، صـــ٣١٣.

"نمط البحث"[١].

وإذا كان بيكون قد وضع أساس المنهج التجريبي الذي سارت العلوم على هديه فتقدمت هذا التقدم الذي نشهد أثره في الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة، فإن ديوي قد وضع أساس المنهج التجريبي الذي ينبغي أن يُطبَّق على العلوم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية، فالأدائية منهج يلائم التفكير في القرن العشرين[٢] .

فيمثل هذا المنهج أداة فعّالة للتفكير، مما يبرز أهمية التكيف مع التحديات الفكرية والاجتماعية التي نواجهها في هذا العصر.

من هنا، التفكير ليس مجرد أداة تحليلية، بل جزء لا يتجزأ من التجربة الإنسانية المتغيرة.

جون ديوي كان واحدًا من ثلاثة فلاسفة بارزين في الفلسفة البراجماتية العملية والعلمية، إلى جانب تشارلز ساندرز بيرس وويليم جيمس. على الرغم من أنهم اتفقوا في الأصول، إلا أن لكل منهم طابعًا مميزًا. ما يميز ديوي هو محاولته استخدام منهج العلوم عند التفكير في القيم. فقد اقترح ديوي أن الفضائل والقيم يجب أن تُعامل كفرضيات علمية تخضع للتجربة العملية. إذا أثبتت التجربة صدقها في الواقع، فإنها تُقبل، وإلا فيجب إعادة صياغتها لتحقيق حياة أفضل للإنسان. الهدف ليس تحقيق الفائدة لفرد واحد فقط، بل لمجموع الأمة أو الإنسانية ككل، تمامًا كما تُختبر الفرضيات العلمية من قبل مجموعة من العلماء وليس فردًا واحدًا فقط[٣].

كما اتفق كل من ديوي وبيرس على أن البحث الذي يهدف إلى معالجة المشكلات

---

(١) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية، صـــ ٢٢٢.

(٢) احمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، صـــ١٠١

(٣) د. زكي نجيب محمود :من زاوية فلسفية، صـــ ٢١٩.

الإنسانية الأساسية يجب أن يركز على الفعل في المواقف الإشكالية، والذي يجب أن يولّد مشكلات جديدة أثناء تطوره، مما يسهم في استمرار عملية التفكير والتحليل[١].

ويعكس هذا النهج تأكيد ديوي على أهمية التجربة العملية في تشكيل المفاهيم والقيم التي تسهم في تقدم البشرية.

ويتميز البحث التجريبي لدى جون ديوي بثلاث خصائص رئيسية:

الأولى: هي أن البحث التجريبي يتطلب العمل الصريح الذي يتم بشكل علني وليس في الخفاء أو السرية. كما يتطلب إجراء تغييرات في البيئة أو في علاقتنا بها.

والأمر الثاني: أن البحث التجريبي العلمي بمعنى الكلمة لا يتم خبط عشواء، وإنما توجهه الأفكار التي يتوقف عليها حل المشكلة المعروضة للبحث.

والثالث: أن ثمرة ذلك التوجيه التجريبي تفضي إلى تكوين مواقف جديدة تختلف فيها علاقة الأشياء بعضها ببعضها الآخر، ويمكن عندئذ أن تصبح معروفة لنا.

ولكن كيف يتم هذا التوجيه، وبأي أداة؟ إنه كما يقول ديوي التوجيه البصير، ذلك الذي يحيط بالشروط علمًا، ويلاحظ علاقات التابع، ويضع في ضوء هذه المعرفة الخطط ويقوم بتنفيذها. وهنا نصل إلى اصطلاح له منزلة خاصة في مذهب ديوي، نعني الذكاء أو العقل البصير، وهو مفهوم ذو أهمية خاصة في فلسفته[٢].

والعقل الذي يتحدث عنه ديوي يركز على الذكاء المرتبط بالحكم، حيث يرى أن الحكم ليس مجرد ربط بين موضوع ومحمول، وإنما هو انتخاب الوسائل وترتيبها كي تتحقق نتائج معينة، واختيار ما نعده غايات لنا. فليس الإنسان ذكيًا لمجرد وجود العقل عنده، هذا

---

(١) تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، صـ١٠٦.

(٢) جون ديوي: البحث عن اليقين، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني ،المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٥م، صـــ١٣-١٤.

العقل الذي يحصل الحقائق الثابتة والمبادئ الثابتة كي يسير منها بطريق الاستنباط نحو الجزئيات، كما كان يقول أرسطو، بل لأن له القدرة على تقدير المواقف حق قدرها، والتصرف بما يقضي به تقديره. باختصار، الذكاء عند ديوي عملي بينما العقل نظري[١].

ويرى ديوي أن العالم عبارة عن وحدة متكاملة، حيث لا يوجد فرق بين ما هو طبيعي وما هو إنساني، ولا غرابة، فمذهبه واحدي، كما أنه يكره أي نوع من أنواع الفصل والثنائيات، ويعتبر أن الطبيعة قابلة للفهم ولها نظام يمكن للإنسان أن يدركه. ولهذا السبب، اقترح ديوي استبدال مفهوم "العقل" بمفهوم "الذكاء"، حيث يرى أن العقل التقليدي يقف خارج الطبيعة ولا يتدخل في تسييرها، بينما الذكاء يشير إلى تدخل الإنسان في فهم الطبيعة والتفاعل معها، والمعرفة العلمية بالأمور الطبيعية تجرى طبقًا للمنهج التجريبي، الذي يتم تطبيقه داخل المعامل ونصل منها إلى قوانين مجردة تدل على العلاقات بين الأشياء، وهذه المعرفة المجردة تنعكس فيما بعد على الحياة العملية[٢]

ويعتبر "ديوي" الأفكار أدوات يستخدمها الإنسان للتكيف مع محيطه وتحقيق أهدافه، وهي تشترك مع براجماتية "بيرس" و"جيمس" في الأصول ولكنها تختلف عنها في الفروع. وقد اصطلح عليها بـــ "الوسيلية" أو "الأداتية" أو "الذرائعية"، وسميت كذلك لأنها تعتبر الأفكار وسائل وأدوات وذرائع يتكيف بها الإنسان مع محيطه، وذلك باعتمادها على عنصري الذكاء والخبرة في "إمكان إقامة علاقات أكثر فاعلية ونفعًا مع الأشياء[٣]".

وليس من الغريب أن يسمى "ديوي" بفيلسوف الخبرة، وهو الذي خصص لموضوع الخبرة كتبًا وأفرد له أبحاثًا ودراسات عديدة متصلة بموضوعات الطبيعة والتربية والعلم والفن والأخلاق وغيرها، حيث يظهر مفهوم الخبرة بشكل واضح في جميع هذه المواضيع. من بين

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ١٤-١٥.

(٢) المصدر نفسه، صـــ ١٦.

(٣) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٦.

مؤلفاته الشهيرة التي تعكس هذا التركيز: "الخبرة والطبيعة" و"الخبرة والتربية" و"الفن خبرة". إن هذه الأعمال وغيرها توضح سبب اعتباره فيلسوف الخبرة، حيث إن الخبرة تشكل جوهر فلسفته وتفكيره [١].

ويتضح جليا أن الطبيعة الديناميكية لمفهوم الحقيقة لدى جون ديوي، حيث يربطها بالتجربة والوسائل المستخدمة لتحقيق الأهداف. ومع ذلك، فإن التأكيد على أن الحقيقة ليست ثابتة أو مطلقة لا يعني نفي وجود حقائق موضوعية أو مبادئ علمية راسخة يمكن الاستناد إليها. فالتقدم في المعرفة لا يلغي الحقائق، بل يسهم في الكشف عنها بصورة أكثر دقة وعمقًا.

فالبراجماتية عند "جون ديوي" تُعتبر منهجًا يعتمد على توضيح الأفكار قبل أي شيء آخر، وهو منهج لتوضيح المدركات والمعاني وللحسم في المناقشات الفلسفية، ومنهج كذلك لتوضيح الرؤى المتصارعة حول الحلول الممكنة لقضايا الإنسان والمجتمع، وذلك بالاستناد إلى النتائج والنشاطات والخبرات.[٢].

يعتبر جون ديوي أن التجربة الأخلاقية تتطلب ضوابط متعددة تستمدها من العالم المادي والظواهر الفسيولوجية والاجتماعية. تسهم هذه الضوابط الأداتية بشكل كبير في ترسيخ المعايير الأخلاقية في النفوس البشرية بطريقة جذرية [٣] .

ويتحدث عن نظرية جون ديوي حول التفكير والمعرفة، حيث يوضح أن التفكير هو عملية حل الإشكالات، وأن المعرفة هي وسيلة لمواجهة المواقف التي تتطلب حلولًا. يركز ديوي على الطريقة التي يعمل بها الفكر لتحقيق نتائج مثمرة في المستقبل، مما أدى إلى تطوير

---

(١) المصدر نفسه، صـــ ٤٠.

(٢) الدكتور أحمد جديدي: فلسفة الخبرة، صـــ ٣٦.

(٣) الدكتور يحيى هويدي: قصة الفلسفة الغربية، صـــــ١٣٩.



نظريته الأداتية في المعرفة والمنطق. هذه النظرية تسعى إلى وضع إطار عام لفهم التصور والاستدلال بناءً على فكرة أن التفكير هو في جوهره عملية لحل المشكلات [(١)].

وأخطر ما ينازع المنهج التجريبي عند جون ديوي هو المنهج الرياضي. فالمعرفة الرياضية عند علماء الرياضيات تُعتبر النموذج الأعلى لليقين، وهي التي ينبغي أن تُطبق على جميع مجالات المعرفة المطلوبة.

موضحًا أن المعرفة الرياضية تُعتبر النموذج الأعلى لليقين بسبب دقتها وانضباطها، ومع ذلك، فإن الرموز في الرياضيات لها أهمية كبيرة عندما تظل مرتبطة بالتجارب الفعلية وتساهم في تحقيق نتائج مستقبلية ملموسة. إذا انفصلت هذه الرموز عن الواقع و لم تعد تعبر عن الخبرة العملية، فإنها تفقد قيمتها الحقيقية[(٢)].

ولكن الجديد عند ديوي هو أن الاعتماد على المنهج الرياضي يباعد بيننا وبين الوجود المحسوس، ولذلك يقترح اتباع المنهج التجريبي. ومن أجل ذلك جعل ديوي المنهج التجريبي قاعدة السلطة الفكرية، وسمى مذهبه التجريبية experimentalism. فالتجريبية هي المحور الذي تدور عليه فلسفته[(٣)].

تعقيب على فكر جون ديوي:

مزايا فلسفة جون ديوي:

١. التركيز على الخبرة العملية: اعتمد ديوي على التجربة العملية كأساس لاكتساب المعرفة، مما أدى إلى تعزيز أساليب البحث العلمي والتفكير النقدي.

---

(١) د. زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، صــ٦٥.

(٢) جون ديوي: البحث عن اليقين، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، صـــ ١٨ .

(٣) المصدر نفسه، صـــ ٢٠.

٢. تطبيق الفلسفة في الواقع: لم تبقَ أفكاره محصورة في نطاق النظريات المجردة، بل امتدت إلى مجالات مثل التعليم، والسياسة، والفن، مما جعلها أكثر تفاعلًا مع القضايا الاجتماعية.

٣. إحداث نقلة نوعية في الفكر التربوي: أثرت رؤيته بشكل كبير على فلسفة التعليم، حيث شدد على التعلم من خلال التجربة بدلًا من أساليب التدريس التقليدية القائمة على التلقين، مما ساهم في تطوير المناهج التعليمية.

٤. الربط بين الديمقراطية والتعليم: اعتبر أن التعليم هو الأداة الأساسية لتحقيق مجتمع ديمقراطي حديث، مؤكدًا على ضرورة وجود علاقة تكاملية بينهما.

٥. تجاوز الثنائيات التقليدية: رفض ديوي الفصل بين العقل والمادة، أو بين النظرية والتطبيق، وقدم تصورًا موحدًا للحياة والفكر الإنساني.

٦. تبني المنهج التجريبي: رأى أن التفكير هو وسيلة لحل المشكلات، مما جعل البحث العلمي والتجربة المستمرة أدوات أساسية لتحسين جودة الحياة البشرية.

انتقادات لفلسفة جون ديوي:

١. إهمال القضايا الميتافيزيقية: ركّز على الجوانب العملية والتجريبية، متجاهلًا بعض التساؤلات الفلسفية العميقة المتعلقة بطبيعة الوجود والمعرفة المطلقة.

٢. الطابع النسبي للحقيقة: اعتبر أن الحقيقة متغيرة باستمرار، مما قد يؤدي إلى نسبية مفرطة تجعل من الصعب تأسيس مبادئ وقيم ثابتة.

٣. انتقاده للرياضيات والمنطق التقليدي: رأى أن الأساليب الرياضية تفتقر إلى الارتباط بالواقع الملموس، مما قد يقلل من أهمية التفكير المجرد في تطوير المعرفة.

٤. تأثيره الكبير بنظرية التطور: ركّز على مفهوم التكيف المستمر، مما جعله يغفل بعض الجوانب الثقافية والتاريخية المهمة في تفسير السلوك الإنساني.

٥. إغفال البعد الروحي: ركّزت فلسفته على المنهج العلمي والتطبيقي، مما جعلها محدودة في تناول القضايا الروحية والوجدانية في حياة الإنسان.

بشكل عام، ساهمت فلسفة جون ديوي في إحداث تطورات مهمة، خاصة في مجالات التربية والفكر العملي، إلا أنها واجهت انتقادات تتعلق بعدم تقديم إجابات واضحة حول المطلقات والتركيز المفرط على التجربة العملية.

مقارنة بين الرواد الثلاثة للبراجماتية: تشارلز ساندرز بيرس، وويليم جيمس، وجون ديوي.

وبناءً على ذلك، تُعدّ الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية من أهم التيارات الفكرية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد ساهم في تطويرها ثلاثة فلاسفة رئيسيون: تشارلز ساندرز بيرس، وويليم جيمس، وجون ديوي.

ركز تشارلز ساندرز بيرس على البراجماتية بوصفها منهجًا لفهم الأفكار والمعتقدات من خلال نتائجها العملية، حيث رأى أن الحقيقة ليست ثابتة، بل هي نتاج عملية مستمرة من البحث والتجربة. هدف بيرس إلى وضع منهج يساعد في توضيح الأفكار وتحديد معانيها استنادًا إلى آثارها العملية.

في المقابل، قام ويليم جيمس بتوسيع نطاق البراجماتية ليشمل مجالات متعددة مثل الدين والأخلاق. وأكد على دور التجربة الشخصية في صياغة الحقيقة، مشيرًا إلى أن الفكرة تُعد صحيحة إذا أثبتت فائدتها في حياة الأفراد. كما شدّد على أهمية الحرية الفردية ودور العواطف والإرادة في اتخاذ القرارات.

أما جون ديوي، فقد ركّز على تطبيق البراجماتية في التعليم والمجتمع، حيث اعتبر التفكير وسيلة لحل المشكلات، ورأى أن التعلم ينبغي أن يكون عملية عملية وتفاعلية. دعا

ديوي إلى إصلاح نظام التعليم بحيث يصبح أكثر ارتباطًا بالواقع، مع التأكيد على دور الديمقراطية والتعاون في تحقيق التقدم الاجتماعي.

وبذلك، شكّلت أعمال هؤلاء الفلاسفة الأساس الذي قامت عليه الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية، والتي تسعى إلى ربط الفكر بالعمل وتقديم حلول عملية للمشكلات الإنسانية من خلال التركيز على النتائج والخبرة العملية.

المبحث الثالث

تأثير الفلسفة البراجماتية التقليدية على تطور البراجماتية الحديثة.

تمهيد:

الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية تُعتبر من أبرز التيارات الفلسفية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث ركزت على الممارسة العملية والفائدة كمعيار أساسي للحقيقة. من بين أبرز روادها ويليم جيمس، تشارلز ساندرز بيرس، وجون ديوي، الذين ساهموا في صياغة أسسها النظرية.

أما البراجماتية الحديثة، فقد تأثرت بشكل كبير بالأسس التي وضعتها البراجماتية الكلاسيكية، لكنها تطورت لتواكب التغيرات الاجتماعية والثقافية. فتُركز البراجماتية الحديثة على التكيف مع التحديات المعاصرة، مثل التكنولوجيا الحديثة والعولمة، مع الحفاظ على جوهرها الأساسي المتمثل في التركيز على النتائج العملية والقيم النفعية.

بالتالي، يمكن القول بالتأكيد إن البراجماتية الحديثة التي يمثلها ريتشارد رورتي تُعتبر تطورًا طبيعيًا للفكر البراجماتي الكلاسيكي. فهي تأخذ المبادئ الجوهرية لهذا التيار الفلسفي، مثل التركيز على النتائج العملية والتجريبية، وتعيد صياغتها بما يتماشى مع التحديات والقضايا التي يطرحها العصر الحديث. هذا التكيف يجعل البراجماتية الحديثة أكثر قدرة على التعامل مع التحولات الاجتماعية والثقافية والفكرية المعاصرة.

أولًا: ريتشارد رورتي:

ريتشارد رورتي يُعد أحد أبرز الفلاسفة المعاصرين الذين أثاروا نقاشات واسعة النطاق في الأوساط الفكرية، نظرًا لقدرته على طرح أفكار فلسفية عميقة مدعومة بحجج متماسكة، رغم تعارض بعضها مع التقاليد الفلسفية الكلاسيكية. هذا التناقض في طرحه

الفكري جعله عرضة للانتقاد، ليس فقط من قبل معارضيه، بل حتى من زملائه وأصدقائه الذين لم يترددوا في التعبير عن تحفظاتهم على توجهاته الفلسفية .

ورغم ذلك، فإن صراحة رورتي ووضوحه في عرض آرائه أكسباه مكانة استثنائية بين الفلاسفة المعاصرين، مما يعزز أهميته كأحد الشخصيات الفلسفية المؤثرة في المشهد الفكري الراهن، حيث أسهم بفلسفته في إعادة صياغة العديد من المفاهيم التقليدية بطرق تلائم السياقات الحديثة.

هو الفيلسوف الأمريكي المعاصر الذي ولد في نيويورك عام ١٩٣١م، وهو ريتشارد رورتي. شغل كرسي الفلسفة في جامعة برنستون، ثم انتقل إلى قسم الإنسانيات في جامعة فرجينيا عام ١٩٨٣م. عمل على تجديد الفلسفة الذرائعية مستندًا إلى تراث ويليم جيمس وجون ديوي. من أبرز مؤلفاته: "الفلسفة ومرآة الطبيعة" (١٩٧٩م)، "نتائج الذرائعية" (١٩٨٢م)، و"الموضوعية والنسبية والحقيقة" (١٩٩١م)[(١)] .

كما عرف رورتي باتجاهه البراجماتي بعد أن بدأ في البداية بالاهتمام بالفلسفة التحليلية، ثم تحول ليتبنى راية البراجماتية الجديدة. وقد لعب دورًا كبيرًا في إحياء البراجماتية من خلال أعماله المتعددة التي غالبًا ما تشير إلى الجذور والمبادئ البراجماتية في كتاباته. يعترف رورتي في أكثر من مناسبة بأنه يتبع خطى الفيلسوف جون ديوي البراجماتي، رغم أن بعض النقاد قد أشاروا إلى عدم التزامه التام بتوجهات ديوي وأفكاره[(٢)].

---

(١) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، صـــ٣٢٦.

(٢) عبد السلام بنعبد العالي: أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة للميتافيزيقا، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ،المغرب،، ١٩٩٢م، صــــــ١٢.



ثانيًا: تأثير الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية على أفكار ريتشارد رورتي:

يظهر تأثير الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية بوضوح في فكر ريتشارد رورتي، لا سيما من خلال تأكيده على دور العمل في تكوين المعرفة وتطوير الفكر. استلهم رورتي العديد من مبادئ البراجماتيين الكلاسيكيين، مثل ويليم جيمس وجون ديوي، حيث شدّد على أن الحقيقة ليست مطلقة أو ثابتة، بل هي نتاج للتجربة البشرية والتفاعل مع البيئة المحيطة.

قام رورتي بإعادة صياغة هذه المفاهيم وفقًا لمنظوره الخاص، حيث دعا إلى التخلي عن فكرة البحث عن قواعد فلسفية صلبة للمعرفة، مفضلًا التركيز على الحوار والتفاهم الإنساني كأدوات لتحقيق التقدم الفكري. كما رفض مفهوم الموضوعية المطلقة التقليدي، موضحًا أن المعرفة ترتبط دائمًا بالسياقات الاجتماعية والثقافية التي تُنتج فيها.

من خلال فلسفته، سعى رورتي إلى تجاوز الانقسامات التقليدية بين الفلسفة والعلم وبين النظرية والتطبيق، مما يعكس بوضوح تأثره بالبراجماتية الكلاسيكية التي تهدف إلى تحقيق نتائج عملية من خلال التفكير والعمل.

يبدأ ريتشارد رورتي في استعراض تاريخ الفلسفة الحديثة من خلال التمييز بين الفلسفة القديمة والحديثة. فالفلسفة القديمة تُعتبر أم العلوم وأساس الحياة الإنسانية المثلى، حيث اعتمدت على علوم مثل فيزياء وبيولوجيا أرسطو. أما في العصور الحديثة، فقد حلت العلوم الجديدة مثل فيزياء نيوتن وبيولوجيا داروين محل العلوم القديمة. كما رأى الفلاسفة المحدثون، أمثال ديكارت وكانط، أن انتصار العلوم الحديثة أدى إلى تراجع الفلسفة القديمة التي كانت تُجسدها الفلسفة المدرسية آنذاك. اعتقدوا أن هذه العلوم الجديدة قد أطاحت بالميتافيزيقا الكلاسيكية، مما أدى إلى ظهور تصور جديد للعالم قائم على المادة والقوى الميكانيكية، بدلًا من العلل الصورية والغائية التي كانت محور اهتمام الفلسفة القديمة[1].

---

(١) ريتشارد رورتي :الفلسفة ومرآة الطبيعة، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، صــ١١-١٢.



وأقول إن التغيرات التي شهدها الفلسفة مع بروز العلوم الحديثة، والتي يمكن ربطها بتأثير البرجماتية القديمة على الفكر الفلسفي وعليه فالبرجماتية ساهمت في تسهيل الانتقال من التركيز على العلل الغائية والصورية إلى اعتماد منهج قائم على التجربة والنتائج الملموسة في تفسير الظواهر الطبيعية والإنسانية.

وفي سنة ١٩٦٧م، كان ريتشارد رورتي مقتنعًا بمنهجه التحليلي اللغوي، حيث اعتبر أن المشاكل الفلسفية يمكن معالجتها من خلال إعادة صياغة اللغة أو فهم أعمق للغة المستخدمة. وكان قد كتب في الانعطاف الألسني The Linguistic Turn أفهم من خلال الفلسفة اللغوية المفهوم الذي بحسبه المشاكل الفلسفية هي مشاكل يمكن حلها أو تذليلها إما بإعادة تشكيل اللغة أو بدراسة أفضل للغة التي نستخدمها اليوم. فقد أشار رورتي إلى أن الفلاسفة مثل ويليم جيمس وجون ديوي كانوا ينتظرون في نهاية المسار الجدلي الذي قطعته الفلسفة التحليلية، بصحبة الأمل الاجتماعي(١).

ومن الواضح أن ريتشارد رورتي تأثر في بداية مسيرته بالفلسفة التحليلية اللغوية، التي ركزت على تحليل اللغة باعتبارها الأداة الأساسية لفهم المفاهيم الفلسفية. لكنه لاحقًا انتقل إلى تبنّي الذرائعية (البراجماتية)، مستلهمًا أفكار ويليم جيمس وجون ديوي، ليعيد توجيه اهتمامه من اللغة إلى الأمل الاجتماعي والتطبيق العملي.

فهذا التحول يعكس تطورًا في منهجه الفكري؛ فبينما انطلق من التحليل اللغوي الدقيق، انتهى إلى التركيز على قضايا المجتمع والإنسانية، مؤكدًا أن الفلسفة يجب أن تكون وسيلة لتعزيز التفاهم والتضامن الاجتماعي بدلًا من السعي وراء حقائق مجردة أو مطلقة.

وتُعتبر مختارات ريتشارد رورتي بعنوان "المنعطف اللغــوي" من أهم الأعمـــال التي

---

(١) جيرار ديلودال :الفلسفة الأميركية، ترجمة :د. جورج كتورة د. إلهام الشعراني، المنظمة العربية للترجمة، صـــــــ ٤٣٦.

ساهمت في تشكيل مصطلح الفلسفة اللغوية. بينما كان الجدل الكانطي يمكن تبريره، أكد برتراند راسل على مفارقة مفادها ضرورة وجود قيود في استخدام اللغة، حيث تميل الفلسفة إلى فهم وظيفة اللغة بناءً على المنطق [١].

فيتضح تأثير البراجماتية القديمة واضحًا في تطور الفلسفة اللغوية، حيث تأثرت بشكل كبير بفكرة أن اللغة ليست مجرد وسيلة لنقل المعاني، بل أداة لفهم العالم وإعادة تشكيله. يظهر هذا النهج بوضوح في أعمال ريتشارد رورتي، الذي دمج بين البراجماتية والتركيز على اللغة كعنصر محوري في الفلسفة الحديثة.

وإعجاب رورتي باللغة لم يتوقف عند المنعطف اللغوي، بل إنه كان ضد المكانة التي مُنحت للغة في هذا السياق، حيث حوّل المنعطف اللغوي إلى فلسفة شاملة تنظر إلى أن كل شيء يحدث ضمن اللغة، وهي الوحيدة التي تمثل الواقع تمثيلًا دقيقًا. ومع ذلك، لا يرى رورتي أي فائدة من التصريح بأن مجالًا معينًا من مجالات الفلسفة هو الفلسفة "الأولى"، مما دفعه إلى مناهضة الشمولية في التفكير الفلسفي [٢].

كما يشترك ديوي وجيمس ورورتي في رفضهم للتأسيس الفلسفي التقليدي وتركيزهم على البراجماتية كفلسفة عملية تواصلية مع الواقع، مما يعني التخلي عن الطابع الجوهري والمثالي. هذا ما يميز البراجماتية عند رورتي كفلسفة غير جوهرية، لأنها ترفض التمييز بين الطبيعة الجوهرية للشيء وطابعه العرضي والعلاقاتي، بينما تقر الفلسفات الجوهرية بالحقيقة الثابتة[٣].

---

(١) توفيق سعيد، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، مؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، صـــ٢٨.

(٢) احمد عبد الحليم عطية: الوضع ما بعد الحداثي، دار الغريب الطبعة الأولى ،بيروت، لبنان، ،٢٠١١م، صـــ ٢١.

(٣) محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، طبعة منشورات ضفاف، الطبعة الاولى ١٤٣٦هـــ- ٢٠١٥م، صـــ ١٨١.



يتضح من خلال النص السابق أن ريتشارد رورتي تأثر بعمق بالبراجماتية الكلاسيكية، خصوصًا من حيث تبنيه لفكرة أن الفلسفة ليست وسيلة لاكتشاف حقائق ثابتة، بل أداة لتعزيز الحوار والتفاعل مع الواقع. تبنى رورتي هذا النهج لتطوير فلسفة تركز على العلاقات الإنسانية والتجارب العملية بدلًا من البحث عن جواهر ثابتة أو مبادئ مطلقة.

هذا التوجه دفعه إلى إعادة صياغة البراجماتية بشكل يتلاءم مع التغيرات الفكرية والاجتماعية في عصره، حيث أصبحت فلسفته أكثر اهتمامًا بالسياق الاجتماعي والإنساني، مع التركيز على دور الحوار في بناء المعرفة وتعزيز التفاهم، مما جعل أفكاره مناسبة لمعالجة التحديات المعاصرة.

كما أعطت الذرائعية لرورتي بعدًا أخلاقيًا للالتزام الفلسفي، والذي ما كانت تستطيع أن تعطيه إياه الفلسفة التحليلية. فقد ركزت الذرائعية على إعادة بناء التجربة، مستلهمة من الذرائعية "السحرية" لوليم جيمس أكثر من الذرائعية "المنطقية" لديوي. ورغم ذلك، لم يكن رورتي متحمسًا تمامًا لمنطق ديوي، حيث بدا وكأنه ينتقده بشيء من الصرامة. ربما كان يسعى لتكريم "روح الأمل الاجتماعي" التي عكسها ديوي في عمله "المنطق: نظرية التحقيق"، لكنه رأى أن ديوي لم يدرك أو لم يرغب في إدراك أن المنطق بالنسبة له كان مجرد وسيلة لتحقيق هذا الرجاء(١).

يتضح جليًا تأثر ريتشارد رورتي بالبراجماتية الكلاسيكية، حيث استلهم من أفكار ويليم جيمس الطابع التجريبي والمرونة الفكرية في مقاربة المسائل الفلسفية، مع التركيز على النتائج العملية. ومع ذلك، كان أقل تأثرًا بالمنهج الذي سلكه جون ديوي، لا سيما في الجوانب المنطقية الصارمة.

---

(١) جيرار ديلودال :الفلسفة الأميركية، صـــــــ ٤٣٧.



كما يتضح أن رورتي استثمر البراجماتية كأداة لإعادة بناء التجربة الإنسانية، مسلطًا الضوء على الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية، مما أضاف طابعًا جديدًا لرؤيته الفلسفية، حيث ركز على تعزيز التضامن الإنساني بدلًا من السعي وراء يقين معرفي أو أسس ثابتة.

كما ينسب رورتي إلى ديوي دورًا بارزًا في إحداث تحول جذري في الفلسفة، من خلال تقويض النماذج المكررة السائدة التي استندت إلى ديكارت وكانط. وقد ساهم في تقديم رؤى جديدة عززت أدوارًا مبتكرة، مما أدى إلى فترة من الفلسفة "الثورية" التي أعادت تعريف طبيعة التفكير الفلسفي ومهامه(١).

ومن الواضح أن جون ديوي أحد أبرز الفلاسفة الذين ساهموا في إعادة توجيه مسار الفلسفة نحو التركيز على التطبيق العملي والتجربة الإنسانية. وقد تركت أفكاره تأثيرًا عميقًا على ريتشارد رورتي وغيره من المفكرين المعاصرين. فتأثر رورتي بهذه الرؤية، خاصةً فيما يتعلق بربط الفلسفة بالقضايا الاجتماعية وتعزيز الحوار والتفاهم بدلًا من البحث عن أسس ثابتة للمعرفة.

ويعتقد رورتي أن التقليد الفلسفي الغربي يمكن التغلب عليه من خلال تبني استراتيجية ديوي التي تتلخص في إبعاد المفاهيم الفلسفية غير التاريخية عن الضرورة، والعالمية، والعقلانية، والموضوعية، والتعالي، وبدلًا من ذلك، يتعين علينا أن نتحدث تاريخيًا عن الممارسات الطارئة، والأوصاف المؤقتة، والنظريات القابلة للمراجعة(٢).

ومن الواضح تأثر أفكار ريتشارد رورتي بشكل ملحوظ بفلسفة جون ديوي، حيث تبنّى رورتي النهج الذي يدعو إلى الابتعاد عن المفاهيم الفلسفية التقليدية التي تهدف إلى

---

(١)Cornel West, The American Evasion of Philosophy: A Genealogy of Pragmatism, Wisconsin, The University of Wisconsin Press, ١٩٨٩, p.٢٠٠

(٢)Ibid.,p.٢٠٠

اكتشاف حقائق مطلقة أو مبادئ ثابتة. بدلًا من ذلك، تبنّى رؤية ديوي التي تركز على التعامل مع الفلسفة كأداة عملية تهدف إلى تحسين التجربة الإنسانية وتعزيز التفاهم الاجتماعي.

من خلال هذا التأثر، أعاد رورتي صياغة البراجماتية لتتماشى مع متطلبات العصر الحديث، مشددًا على أهمية الحوار والمرونة الفكرية في مواجهة التحديات المعاصرة.

ورؤية رورتي لديوي تثير تساؤلات عميقة حول العلاقة بين الفلسفة والتاريخ. فديوي التاريخي، كما يبدو، كان يركز على الأمل الاجتماعي القائم على منطق التعاملية، بينما تفسير رورتي يبتعد عن هذا السياق. السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل يجب أن نلتزم بديوي التاريخي كما هو، أم نسمح بتجاوز هذا الإطار لتطوير فلسفة جديدة؟ يرفض رورتي فكرة الالتزام الكامل بالذرائعية التقليدية، مشيرًا إلى أن الإبداع لا يرتبط بالضرورة بهذه الطريقة. ومع ذلك، فإن حججه قد تكون قوية لكنها ليست بالضرورة مقنعة للجميع. ربما يكمن الحل في إيجاد توازن بين احترام الإرث التاريخي لديوي وبين السعي نحو فلسفة مستقبلية تتجاوز حدود الذرائعية التقليدية(١).

كما تأثر ريتشارد رورتي بشدة بأفكار جون ديوي، خاصةً فيما يتعلق بـــ"الأمل الاجتماعي"، والانتقال من الدفاع عن الحقوق إلى العدالة والحرية. كما تأثر رورتي بشكل خاص بالدور الذي أداه ديوي في لجنة التحقيق في قضية تروتسكي التي ترأسها في مكسيكو عام ١٩٣٧م، حيث كان والد رورتي مشاركًا في المكتب التنفيذي(٢).

يمكن القول إن العودة إلى أفكار جون ديوي الأصلية تحمل أهمية كبيرة، خاصة في ظل التحديات الفكرية والاجتماعية المعاصرة. تتميز فلسفة ديوي بمرونتها وقدرتها على

(١) جيرار ديلودال :الفلسفة الأميركية، ، صـــــ ٤٣٨.

(٢) المصدر نفسه، صـــــ ٤٤٠

التكيف مع الواقع المتغير، حيث ركز على التجربة الإنسانية والتعلم التفاعلي بوصفهما أساسًا لفهم العالم وتطوير المجتمع. هذه الأفكار ليست فقط صالحة لفهم القضايا الراهنة، بل يمكن تطويرها وتوسيعها لتناسب الفلسفة المستقبلية.

فتطور أفكار ديوي جاء عبر مفكرين مثل ريتشارد رورتي، الذي أعاد صياغتها بما يلائم قضايا الحداثة وما بعد الحداثة، مما يبرز قابليتها للتجديد والتكيف مع التحولات الفكرية والمجتمعية المستمرة. لذلك، يمثل نهج ديوي نقطة انطلاق مهمة للفلسفة المستقبلية، خصوصًا في مجالات التعليم، الأخلاق، والسياسة، حيث يمكن استخدامها كإطار لتطوير مفاهيم جديدة تدعم الابتكار والتقدم الإنساني.

وما حاول رورتي توضيحه هو أن الأسس الفلسفية التي قامت عليها الثقافة الغربية قد فقدت قدرتها على تلبية تطلعات الإنسان المعاصر. ورغم أن قيم الأنوار والتقدم تمثل إرثًا تاريخيًا وثقافيًا لا يمكن الاستغناء عنه، فإن الحاجة إلى اكتشاف آفاق جديدة وابتكار أساليب جديدة في التعبير والإدارة، واستكشاف أذواق جديدة في الرؤية والسلوك، أصبحت ضرورة لتجاوز ما أقرته تلك القيم دون إنكارها. بمعنى آخر، يطرح رورتي فكرة أن علينا أن نعيش عصرنا بكل تساؤلاته وتحدياته وتناقضاته، لأن الرؤية التقليدية للعالم التي تبناها الغرب منذ الإغريق وحتى عصر التنوير لم تعد قادرة على تلبية متطلبات الحاضر(١).

فيعتقد رورتي أن البراجماتية تقدم نموذجًا مرنًا لمواجهة تحديات العصر الحديث، حيث تدعو إلى تجاوز الأسس التقليدية دون نفيها، وتركز بدلًا من ذلك على الابتكار والتجديد بما يتوافق مع احتياجات الإنسان المعاصر.

ويشير ريتشارد رورتي إلى أن الفلسفة التحليلية قد استنفدت إمكانياتها وأصبحت الآن مجرد أسلوب أو ظاهرة اجتماعية بدلًا من أن تكون مجالًا حيويًا للإبداع الفلسفي. هذا

---

(١) محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، صـــــ١٩٢.

لا يعني بالضرورة انتقاصًا من قيمتها أو تأثيرها، بل يعكس طبيعة الحركات الفكرية التي تصل إلى نقطة معينة من النضج وتستنفد فيها إمكانيات الافتراضات التي قامت عليها(١).

فيؤكد ريتشارد رورتي، متأثرًا بالفلسفة البراجماتية، أن الحقيقة والمعنى ناتجان عن التجربة والتفاعل مع الواقع، وليسا مطلقين. ويرى أن القضايا الفلسفية تعتمد على افتراضات لغوية وثقافية قابلة للتغيير.

كما يرى رورتي أن جون ديوي يمثل الشخصية الرئيسية في الحركة البراجماتية الأمريكية، الذي ينسب إليه رورتي العديد من عقائده المركزية. وعلى وجه الخصوص، يجد رورتي في ديوي توقعًا لوجهة نظره الخاصة في الفلسفة باعتبارها خادمة للسياسة الإنسانية، ووجهة نظر غير وجودية لفضائل الاستقصاء، ومفهوم شامل للحياة الفكرية الإنسانية، ومفهوم تاريخي مناهض للجوهر للفكر الفلسفي. ولكن لكي يقرأ رورتي ديوي على طريقته، فإنه يشرع صراحة في فصل ديوي "الجيد" عن "الرديء"(٢).

ومن الواضح أن ريتشارد رورتي يظهر اهتمامًا خاصًا بإحياء بعض أفكار البراجماتية الكلاسيكية التي يمثلها جون ديوي، مع التركيز على الجوانب التي تتناغم مع رؤيته للفلسفة. يسعى رورتي إلى إعادة تفسير أفكار ديوي بطريقة تبرز دور الفلسفة كوسيلة لتحقيق الأهداف الإنسانية والسياسية.

كما نرى، يسلط رورتي الضوء على أهمية ديوي في توجيه المثقفين اليساريين الأميركيين في الثلاثينيات نحو مسار بعيد عن الانخداع بالماركسية، كما حدث مع مثقفين

---

(١) ريتشارد رورتي :الفلسفة ومرآة الطبيعة، صـــ٢٥٠.

(٢)Ramberg, Bjørn, "Richard Rorty", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Spring ٢٠٠٩ Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL <https://plato.stanford.edu/archives/spr٢٠٠٩/entries/rorty/>.

آخرين في فرنسا وأميركا اللاتينية. يرى رورتي أن الأفكار تحمل جمالًا ونتائج إيجابية، ويستنتج أن رؤية ديوي للجماعة الديمقراطية ترتكز على التضامن الإنساني، بعيدًا عن القسرية أو الإكراه. فالذرائعية الجديدة لرورتي تتميز بأنها طوعية وتعكس قراءة لديوي تجمع بين استمرارية جولته اللغوية ورد فعل على تأويلات مزدوجة غير دقيقة من خصومه(١).

فالذرائعية الجديدة التي طرحها رورتي تُعبّر عن تطور فكري يستند إلى أفكار جون ديوي، حيث تمثل محاولة لإحياء البراجماتية الكلاسيكية وإعادة تفسيرها بأسلوب مبتكر يدمج بين منهج المدرستين التقليدية والتحليل اللغوي الحديث.

والذرائعية، كما يوضحها ديوي ورورتي، تعارض فكرة الجوهرية. فالفكرة الأساسية هنا هي أن التمييز بين الأشياء ككيانات مستقلة والعلاقات التي تربط بينها ليس سوى طريقة أخرى لفصل ما نتحدث عنه وما نقوله عنه. فالمناهضون للجوهرية لا يشككون في وجود الأشجار والنجوم قبل أن نتحدث عنها أو نصوغ قضايا تتعلق بها، لكن وجودها بحد ذاته لا يقدم إجابة مباشرة على السؤال: فهل الأشجار والنجوم موجودة بمعزل عن العلاقات التي تربطها بالأشياء الأخرى أو القضايا التي نناقشها بشأنها(٢).

فيتفق ديوي ورورتي في رؤيتهما للذرائعية كمنهج فلسفي يُعلي من قيمة النتائج العملية للأفكار، بدلًا من التركيز على السعي وراء حقائق جوهرية ثابتة.

كما قدّم ريتشارد رورتي تفسيرًا غير دقيق ومبالغًا فيه لما يختص بفكر ديوي. وإذا كان رورتي قد قام بتفسير خاطئ ومبالغ فيه بشأن فكر ديوي، فقد أثار ذلك انتقادات حول مدى فهمه العميق لأعمال ديوي. رغم ذلك، لم يظهر أن رورتي تأثر بتلك

---

(١) جيرار ديلودال :الفلسفة الأميركية، صـــــ ٤٤١

(٢) المصدر نفسه ، صـــــ ٤٤٤

الانتقادات أو غيّر قناعاته. بل أقر بأنه لم يمنح قراءة ديوي الاهتمام الكافي، معبرًا عن أمله في التعمق فيها مستقبلًا. ومع ذلك، أظهر إعجابه الواضح بفكر ويليم جيمس، بينما كان تقديره لديوي محدودًا(١).

وفيما يتعلق بمفهوم الحقيقة عند رورتي، يشير إلى أن الهدف من البحث العلمي أو أي نوع آخر من البحث ليس الوصول إلى الحقيقة المطلقة، بل في الغالب الاستعداد الأفضل للبرهنة والاستعداد الأفضل لمعالجة الشكوك التي تحيط بما نقوله. فالفكرة الأساسية هنا هي أن الحقيقة قد تكون غير قابلة للتحقق أو الإدراك الكامل، حتى لو كنا قد وصلنا إليها دون أن ندرك ذلك(٢).

ومن الواضح أن مفهوم الحقيقة لدى ريتشارد رورتي يتماشى مع أسس الفلسفة البراجماتية الكلاسيكية، لكنه يضيف إليها بُعدًا جديدًا. فبينما ركزت البراجماتية الكلاسيكية، كما عند بيرس وديوي، على أن الحقيقة ترتبط بما هو فعّال ويحقق نتائج عملية، يتجاوز رورتي هذا الإطار بتأكيده أن الحقيقة ليست ثابتة أو مطلقة، بل تتحدد من خلال التوافق الاجتماعي واللغوي بين الأفراد.

فهذا المنظور المبتكر يدفع رورتي إلى ما يمكن وصفه بـــ"البراجماتية الجديدة"، حيث تسلط الأضواء على الدور المحوري للغة والمجتمع في صياغة مفاهيمنا عن الحقيقة.

كما يجمع رورتي بين الفلسفة التحليلية والمنعطف المحادثاتي في تأكيده على أن الحقيقة لا تُكتشف فقط، بل تُصنع أيضًا. ويصرح بأن إحدى سمات البراجماتية الجديدة هي أنها لا تفرض أي قيود جديدة على البحث من خلال قيود الحوار، حيث لا توجد قيود كبيرة نابعة من طبيعة الأشياء أو العقل أو اللغـــة، باستثناء القيـــود التي يضعها الباحثـــون

---

(١) جيرار ديلودال :الفلسفة الأميركية، صــــــ ٤٣٧.

(٢) المصدر نفسه، صــــــ ٤٤٣

أنفسهم من خلال ملاحظاتهم [١].

ويمكن القول إن البراجماتية الجديدة تستمد تأثيرها من البراجماتية القديمة من حيث الأساس الفلسفي الذي يركز على الفعل والنتائج العملية كمعيار للحقيقة.

ويرى رورتي أن الفكر الغربي غالبًا ما حاول الربط بين الحقيقة الموضوعية واستخدام العقل، مع التركيز على جعل العلوم الطبيعية المعيار الأعلى للعقلانية والموضوعية. هذا النهج، بحسب رورتي، يعكس صورة للعالم شبيهة بتلك التي قدمها اللاهوتيون في العصور السابقة، حيث يتم ربط الإنسانية بجذور أو مبادئ أو حقائق مطلقة، وتحديد مصيرها بناءً على اتباع طريق معين، سواء كان علميًا أو دينيًا. كما يستبعد رورتي فكرة وجود "نظرية في الحقيقة" في الفكر البراجماتي، لأن البراجماتي هو نصير التضامن والتواصل[٢].

يتضح مما سبق أن ما يميز رؤية رورتي هو تركيزه على أن التضامن والتواصل يشكلان جوهر الفلسفة البراجماتية، حيث يدعو إلى بناء علاقات اجتماعية قائمة على التفاهم المتبادل بدلًا من السعي وراء "حقيقة مطلقة". وعلى الرغم من أن البراجماتية الكلاسيكية، كما قدمها روادها الأوائل، تعتمد على تقييم الأفكار من خلال نتائجها العملية وقيمتها في تعزيز التعاون الإنساني، فإنها تضع التضامن والتواصل في قلب رؤيتها، مما يجعل هذه القيم محورًا أساسيًا في كلا المنهجين.

كما ناقش رورتي في كتاباته الفكرة التي تتمثل في أن الفلسفة ليست الأساس المطلق أو النهائي للتفكير والتعبير في الثقافة الغربية. بدلًا من ذلك، يرى أن الحقيقة ليست شيئًا ثابتًا أو متطابقًا مع الواقع، بل يمكن أن تكون متغيرة ومختلفة بناءً على السياقات المختلفة.

---

(١) ريتشارد رورتي: حول التراكيب البنائية والتحليلات المهنية وثقافية التراث، ترجمة مراد وهبة، مكتبة أنجلو مصرية، ،١٩٨٠م، صــــ٤٤٩.

(٢) محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، صــــ١٨٣.

هذا يعني أن كل فرد أو مؤسسة يمكن أن تبتكر حقائقها الخاصة بناءً على سلوكياتها ومصطلحاتها التي تدير حياتها من خلالها. وبالتالي، لا توجد أفضلية مطلقة بين الحقائق المختلفة، ولا يمكن منح دور معرفي الأولوية على الآخر [١].

يمكن القول إن رورتي يسعى إلى تجاوز التصورات التقليدية وإعادة تقييم دور الفلسفة والمثقفين، مؤكدًا أن كل فرد أو مؤسسة تمتلك القدرة على ابتكار حقائق خاصة بها تتماشى مع احتياجاتها وتُسهم في تحسين إدارة حياتها بفعالية.

ويرى رورتي أن الفكر الأمريكي يعتمد على تقليد طويل الأمد يركز على تحويل كل فكرة إلى أداة ذات منفعة عملية، وكل عمل، سواء كان فكريًا أو يدويًا، يُعتبر مهنة يمارسها الفرد بهدف تحقيق المتعة أو المنفعة أو الوصول إلى الجودة والإتقان. من هذا المنطلق، تنتهي الفلسفة كتَصوُّر ميتافيزيقي أو كبحث عن تطابق خارجي، لتتحول في رؤية رورتي إلى عملية براجماتية تركز على التطبيق والفائدة[٢].

يتبين مما سبق أن رورتي يتبنى البراجماتية الكلاسيكية مع إجراء تعديلات جوهرية عليها، حيث يسلط الضوء على الجانب العملي للفكر والفلسفة، مستلهمًا من أعمال البراجماتيين الأوائل مثل بيرس وديوي.

وفكرة ريتشارد رورتي حول طبيعة المشكلات الفلسفية، حيث يرى أن هذه المشكلات ليست ثابتة أو أزلية، بل هي نتاج لتبني فرضيات محددة دون وعي. وهذه الفرضيات تكون مغروسة في المفردات المستخدمة لصياغة المشكلة. ومن هنا، يشير إلى أهمية فحص هذه الفرضيات أولًا قبل محاولة معالجة المشكلة نفسها[٣].

---

(١) محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، صـــــ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه، صـــــ١٩٥.

(٣) ريتشارد رورتي :الفلسفة ومرآة الطبيعة، صـــ٤٧.



ويشير ريتشارد رورتي إلى تحليل فكر إيمانويل كانط، وخاصة مفهوم "التركيب" الذي يعتبره كانط عملية عقلية تجمع بين الأفكار الجزئية والعامة لتوليد معنى جديد. فيوضح رورتي أن هذا المفهوم يختلف عن "الترابط" عند ديفيد هيوم، حيث يرى هيوم أن الأفكار ترتبط ببعضها بشكل مباشر دون تدخل العقل في خلق معنى جديد. وبالتالي، فإن كانط يعزز من أهمية العقل في بناء المعرفة من خلال عملية التركيب. وتظهر العلاقة الوثيقة بين مفهومي "التركيب" و"التمييز" في فكره، حيث يكمل كل منهما الآخر لتشكيل بنية نظرية متكاملة(١).

ويتضح مما سبق ارتباط تحليل ريتشارد رورتي لفكر كانط بالبراجماتية الكلاسيكية من خلال إبراز دور العقل في صياغة المعرفة. فبينما يرى كانط أن العقل يقوم بعملية تركيب تؤدي إلى توليد معانٍ جديدة، فإن البراجماتية الكلاسيكية، كما يتجلى عند بيرس وديوي، تركز على تطور الأفكار والمعاني عبر التجربة العملية والتفاعل مع الواقع. يبرز هذا الارتباط كيف يمكن للعقل أن يعمل كأداة فعّالة في إنتاج معرفة عملية، مما يساهم في تعزيز الصلة بين النظرية والتطبيق ضمن السياقات الفلسفية المتنوعة.

وفيما يتعلق بطبيعة المعرفة، أسند ريتشارد رورتي نقده للإشكالية الإبستيمولوجية بناءً على الفرضية التي تفيد بأن ديكارت ولوك استخدما مفهوم "الفكرة" كوسيلة لفهم العلاقة بين الملاحظ الداخلي والعالم الفيزيائي الخارجي، مما يثير تساؤلات حول كيفية التأكد من أن الصور أو الأفكار تعكس الواقع بشكل صحيح. هذه الإشكالية تفتح باب النقاش حول طبيعة المعرفة وحدودها، وكيف يمكن للعقل البشري أن يتجاوز الحواجز الإدراكية للوصول إلى الحقيقة(٢).

---

(١) ريتشارد رورتي :الفلسفة ومرآة الطبيعة، صـــ٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه، صـــ١١.

فيبدو جليًا أن ريتشارد رورتي قد استلهم أفكاره من البراجماتية الكلاسيكية، حيث سعى إلى تجاوز المعضلات التقليدية للإبستيمولوجيا عبر التركيز على الفعل العملي بدلًا من السعي لتمثيل دقيق للواقع. يمكن ربط هذا التوجه بأفكار الفلاسفة البراجماتيين الكلاسيكيين، مثل بيرس وويليم جيمس، الذين جعلا من النتائج العملية للتفكير والمعرفة معيارًا للحقيقة، بدلًا من التمسك بمفهوم الحقيقة المطلقة أو الموضوعية.

على أن أقل البراجماتيين تفضيلًا لدى رورتي هو بيرس، الذي يعتبره خاضعًا لثنائية المخطط والمحتوى ولدرجة من العلمانية. لذا، فليس من المستغرب أن يجد هاك، الذي يستمد البراجماتية الخاصة به إلهامه من بيرس، أن إعادة صياغة رورتي للبراجماتية لا تستحق هذا الاسم حرفيًا. إن القطيعة الرئيسية بين رورتي والبراجماتيين تشكل قطيعة أساسية؛ فمن وجهة نظر هاك، فإن رورتي، وضع نفسه في معارضة للتوجه المعرفي للفلسفة الحديثة، ينتهي به الأمر إلى رفض المشروع ذاته الذي أعطى الاتجاه لأعمال البراجماتيين الأميركيين.

وبينما تسعى البراجماتية الكلاسيكية إلى فهم وتأسيس إطار شرعي جديد للبحث العلمي، يُقال إن "براجماتية" رورتي (مع التأكيد المستمر على علامات الاقتباس) لا تعدو كونها تخليًا عن محاولة فهم طبيعة وشروط كفاية البحث. وبدلًا من مساعدتنا في تحقيق طموحنا في إدارة أنفسنا من خلال التفكير العقلاني، فإنها تضعف مرونتنا الفكرية وتجعلنا أكثر عرضة للتأثيرات الخطابية. وبهذا المعنى، تُعتبر براجماتية رورتي تهديدًا جوهريًا للعقل، وبالتالي للفلسفة(١).

يتناول النص الفروقات بين ريتشارد رورتي والبراجماتيين الكلاسيكيين، مثل تشارلز ساندرز بيرس، مع التركيز على الانتقادات الموجهة لرؤية رورتي للبراجماتية. يُنظر إلى رورتي

---

(١)Ramberg, Bjørn, "Richard Rorty", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Spring ٢٠٠٩ Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <https://plato.stanford.edu/archives/spr٢٠٠٩/entries/rorty/>.

على أنه قد انحرف عن الأهداف الجوهرية للبراجماتية، التي تسعى إلى تطوير إطار جديد لفهم البحث العلمي وتأسيسه، بينما يُعتقد أن براجماتيته تفتقر إلى هذا الطموح وتُضعف قوة التفكير العقلاني. يعكس النص نقاشًا فلسفيًا حول مدى تأثير رؤية رورتي على الفلسفة والعقلانية، بالإضافة إلى المخاطر المحتملة التي قد تترتب على اعتماد رؤيته من منظور منتقديه.

فالبراجماتية الجديدة عند رورتي هي محاولة لتطوير البراجماتية الكلاسيكية التي أسسها فلاسفة مثل بيرس وديوي وجيمس. رورتي يُضيف إلى هذه الفلسفة عناصر من الفكر ما بعد الحداثي. يقول رورتي عن نفسه "أنه اقرب إلى ديوي وجيمس منه إلى بيرس. فهذا الأخير اشتهر بتنظير فلسفي بارع في نظرية العلامات (السيميولوجيا[١]) لكنه ظل أسر التصور الكانطي بالبحث عن سياق لا تاريخي يضم كل شيء ويصبح القبلي الضروري والمتعالي لكل تجربة أو فكرة أو مشروع"[٢].

فتسعى الفلسفة البراجماتية الجديدة التي قدّمها ريتشارد رورتي إلى تطوير البراجماتية الكلاسيكية التي أسسها فلاسفة مثل تشارلز ساندرز بيرس، وجون ديوي، ووويليم جيمس. حيث يدمج رورتي في فلسفته جوانب من الفكر ما بعد الحداثي، مما يمنحها طابعًا أكثر مرونة وقدرة على التكيّف مع التحديات والسياقات الفلسفية المعاصرة.

---

(١) السيميولوجيا هي العلم الذي يختص بدراسة أنظمة العلامات بمختلف أشكالها، سواء كانت لغوية أو أيقونية أو حركية. وبذلك، بينما تركز اللسانيات على دراسة الأنظمة اللغوية، تهتم السيميولوجيا بالعلامات غير اللغوية التي تتشكل داخل المجتمع. وبناءً على ذلك، تُعدّ اللسانيات فرعًا من السيميولوجيا، نظرًا لكون الأخيرة تدرس جميع الأنظمة التعبيرية، بغض النظر عن طبيعة رموزها أو أنماطها التواصلية، سواء كانت لغوية أو غير ذلك. انظر جميل حمداوي:السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، مطبعة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م ،صـــ٦.

(٢) محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر ، صـــ ١٨٠.

ويرى ريتشارد رورتي أن الفلسفات التقليدية قد سقطت في فخ تصور العقل كمرآة شاملة تعكس مجموعة من التمثيلات المتنوعة، بعضها صحيح والبعض الآخر غير دقيق. هذا التصور دفع هذه الفلسفات إلى التمسك بأسس دوغمائية مبنية على افتراضات غير دقيقة وغير مفيدة، سواء من حيث الإنسان أو العلم. لذلك، يدعو رورتي إلى التخلي عن هذه المنظومة الميتافيزيقية المعرفية، والعودة إلى الواقع المادي للإنسان، مما يسمح ببناء فهم أكثر واقعية وفعالية للعقل والمعرفة(١)

يتأثر ريتشارد رورتي بالبراجماتية الكلاسيكية، خاصة أفكار وليام جيمس وجون ديوي، في رفضه لفكرة المعرفة كتمثيل مطابق للواقع. وبدلًا من ذلك، يتبنى منظورًا براجماتيًا يرى أن الأفكار تُقيَّم بناءً على فائدتها في التجربة الإنسانية. كما يؤكد على أن الحقيقة ليست مطلقة، بل تنشأ من التفاعل بين الأفراد والسياق الاجتماعي.

تعقيب

ريتشارد رورتي يُعدّ من أبرز الفلاسفة الذين أسهموا في تطوير الفلسفة البراجماتية الحديثة من خلال إعادة صياغة مبادئها لتواكب التحديات الفكرية الراهنة. تميّز عمله بالتركيز على تجاوز الثنائيات الفلسفية التقليدية، مثل الحقيقة مقابل الوهم أو العقل مقابل العاطفة، حيث يرى أن الحقيقة ليست مطلقة أو ثابتة، بل هي نتاج حوار اجتماعي مستمر يخدم أغراضًا عملية.

دعا رورتي إلى التخلي عن السعي وراء أسس معرفية ثابتة، مؤكدًا أن هذا النهج يعيق التقدم الفكري والاجتماعي. وبدلًا من ذلك، طرح مفهوم "التضامن الاجتماعي"، حيث تتشكل القيم والمعرفة من خلال التفاعل الإنساني والتفاهم المشترك، مما يعزز التعاون

(١) أزفا لدكوليه: المدخل إلى الفلسفة، ترجمة أبو على العفيفي، مكتبة النهضة المصرية عالم الآداب للبرمجيات النشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان،٢٠١٢م ، صـ٤٤.

لتحقيق الأهداف العملية.

رؤية رورتي للفلسفة تميزت بمحاولة إعادة تعريف البراجماتية لتكون أكثر انسجامًا مع متطلبات العصر الحديث، حيث وسّع إطارها ليشمل دور اللغة والسياق في تشكيل المعرفة، مؤكدًا على طبيعتها النسبية. ومن خلال أفكاره، دعا إلى المرونة الفكرية والانفتاح على الحوار باعتبارهما أدوات أساسية لفهم العالم وتحقيق التقدم.

وبذلك، يمكن القول إن البراجماتية الحديثة، بفضل إسهامات رورتي، طوّرت البراجماتية الكلاسيكية بإضافة أبعاد جديدة تركّز على السياق الاجتماعي واللغوي للمعرفة، مما جعلها أكثر قدرة على التعامل مع قضايا العصر وتطبيقاتها في مختلف مجالات الحياة.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصلت إليها:

١. تُعدّ البراجماتية من أبرز التيارات الفلسفية التي تركت تأثيرًا ملموسًا في مختلف مجالات المعرفة، حيث انعكست أفكارها على الفلسفة، والعلوم، والسياسة، والتربية .

٢. ظهرت البراجماتية التقليدية نتيجة تفاعلها مع الفلسفات السابقة، حيث استوعبت جوانب متعددة منها، لكنها أعادت تشكيلها ضمن إطار جديد يركّز على التطبيق العملي والفائدة المباشرة .

٣. لعب "وليم جيمس" دورًا محوريًا في انتشار البراجماتية وتطورها، إذ تبنّى أفكار "تشارلز ساندرز بيرس"، وطوّرها، وقدمها إلى جمهور أوسع، مما عزّز تأثيرها الفلسفي .

٤. يُعتبر "تشارلز ساندرز بيرس" المؤسس الأساسي للبراجماتية، حيث قام بوضع أسسها وصياغة مبادئها لأول مرة، مما جعله رائدًا في هذا المجال الفلسفي .

٥. قامت فلسفة "جون ديوي" على اعتبار التجربة والعمل عنصرين جوهريين في اكتشاف الحقيقة وتطوير المعرفة، مؤكدًا على ضرورة توجيه الفكر نحو حل المشكلات العملية وتعزيز جودة الحياة الإنسانية .

٦ . ركّز "ريتشارد رورتي" على الدور المحوري للغة في تشكيل الفكر والمعرفة، مما أدى إلى تزايد اعتماد الفلسفة على التحليل اللغوي في تفسير المفاهيم .

٧ . رأى "رورتي" أن مفهوم "الحقيقة" ليس مطلقًا أو ثابتًا، بل يتشكل من خلال التوافقات الاجتماعية والثقافية التي تتغير مع مرور الزمن .

٨ . انتقد "رورتي" الفلسفات التقليدية التي تستند إلى الميتافيزيقا، معتبرًا أنها غالبًا ما تكون غير عملية، ودعا إلى تجاوزها نحو نهج أكثر ارتباطًا بالواقع .

٩ . شدّد "رورتي" على ضرورة توظيف الفلسفة كوسيلة لتحسين الحياة اليومية، بدلًا من الاكتفاء باستخدامها في البحث عن مبادئ نظرية مجردة لا تسهم في حل المشكلات الواقعية .

١٠. أسهم "ريتشارد رورتي" في تجديد الفلسفة البراجماتية عبر تركيزه على قضايا اللغة، والفردية، والتعددية، مما جعله من أبرز مفكري القرن العشرين وأحد أهم المجددين في الفكر البراجماتي.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٩١هـ - ١٩٧٩م)
- أحمد عبد الحليم عطية: الوضع ما بعد الحداثي، دار الغريب، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان
- أحمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، دار المعارف، الطبعة الثالثة
- أزفا لدكوليه: المدخل إلى الفلسفة، ترجمة: أبو علي العفيفي، مكتبة النهضة المصرية، عالم الآداب للبرمجيات النشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م
- الدكتور جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م
- الدكتور زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، دار الشروق
- الدكتور محمد مالك رضوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م)
- الدكتور يحيى هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م
- برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. محد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م
- برتراند رسل: حكمة الغرب الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة: د. فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٠م
- توفيق سعيد: في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م

- جميل حمداوي: السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، مطبعة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م
- جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م
- جون ديوي: البحث عن اليقين، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٥م
- جون ديوي: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة: دكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة – إسكندرية، ١٩٩٦م
- جيرار ديلودال: الفلسفة الأمريكية، ترجمة: د. جورج كتورة، د. إلهام الشعراني، المنظمة العربية للترجمة
- حيدر حاج إسماعيل (ترجمة): ريتشارد رورتي: الفلسفة ومرآة الطبيعة، المنظمة العربية للترجمة
- د. زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة
- د. زكي نجيب محمود (إشراف ومراجعة): الموسوعة الفلسفية المختصرة، تأليف: جوناثان ري، ج. أو . أرمسون، ترجمة: فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق محمودي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٣م
- د. زكي نجيب محمود (ترجمة): ريتشارد رورتي: حول التراكيب البنائية والتحليلات المهنية وثقافة التراث، مكتبة أنجلو مصرية، ١٩٨٠م
- د. زكي نجيب محمود (مراجعة): وليم جيمس: بعض مشكلات الفلسفة، ترجمة: الدكتور محمد فتحي الشنيطي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر
- د. سهيـــل زكار: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٨هــ-١٩٩٧م

- د. علي عبد الهادي المرهج: الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م
- د. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م
- د. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، مكتبة مؤمن قريش، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م
- د. ناجي التكريتي: الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧م
- ريتشارد رورتي: الفلسفة ومرآة الطبيعة، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة
- عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٣م
- عبد السلام بنعبد العالي: أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة للميتافيزيقا، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المغرب
- عبد الفتاح محمد دويدار: مناهج البحث في علم النفس، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، الإسكندرية
- فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ١٩٩٣م)
- كفاء يحيى صالح العسكري: الغزالي وجون ديوي نظرتهما للطبيعة الإنسانية، إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية
- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، منشورات ضفاف، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
- مراد وهبه: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٧م

- هانز ريشينباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: د. فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
- هربرت شنايدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة: الدكتور محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م
- وليم جيمس: البرغماتية، ترجمة: وليد شحادة، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سورية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م
- وليم جيمس: العقل والدين، ترجمة الدكتور محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية
- وليم جيمس: معنى الحقيقة، ترجمة وتقديم: أحمد الأنصاري، مراجعة: حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

- Cornel West, The American Evasion of Philosophy: A Genealogy of Pragmatism,Wisconsin, The University of Wisconsin Press, ١٩٨٩.
- Ramberg, Bjørn, "Richard Rorty", *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Spring ٢٠٠٩ Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <https://plato.stanford.edu/archives/spr٢٠٠٩/entries/rorty/>.

فهرس الموضوعات